

إميل ناصيف

الزوجة المارقة



دار الجيّد
بيروت

0161085



Bibliotheca Alexandrina

الزَّوْجُ مَا قِيلَ
فِي
الرِّشَاءِ

الأزواج ما قبل في الرشاء

إعداد
إميل ناصيف

دار الحيد
بيروت

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية

المقدمة

الرّثاء فنٌّ من فنون الشّعْر الغنائيّ يُعبّر فيه الشاعر عن حزنه وتفجّعه لفقدانٍ حبيبٍ. وهو يتلوّن بألوان مختلفة تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا غلب عليه البكاء على الرّاحل، وبثّ اللوعة والحزن، كان نذباً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتّع بها الفقيد في حياته، كان تأبيناً. وإذا غلب عليه التأمّل في حقيقة الموت والحياة كان عزاءً. وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة.

والرّثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمة لم تعرف الرّثاء، كما أنّه ليس فيه أمة لم تعرف الموت، فالرّثاء وُجد عند كلّ الأمم والشّعوب باديةً وراقيةً مُتَحَضِّرةً.

وعرف أدبنا الرّثاء منذ العصر الجاهليّ، إذ كانت النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مُؤبِّنين لهم مُثْنين على خصالهم. وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأنّ ذلك مصيرٌ محتوم.

وأشهر شعراء الرّثاء في الأدب العربيّ المُهلّهِل والخنساء في العصر الجاهليّ، وحسان بن ثابت ومتمّم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، وجريّر في العصر الأمويّ، والمتنبّي وابن الرومي وأبو تمام في العصر العباسيّ، والأخطل الصّغير، وحافظ إبراهيم في العصر الحديث.

وقد أثبت في كتابي هذا أروع ما وجدته لهؤلاء الشعراء من قصائد
الرثاء، وضممت إلى هذه القصائد أخوات لها لشعراء آخرين لم يقلوا جودةً
في رثائهم عن الشعراء الخالدين الذين سبق ذكرهم.

وآمل أن تُعجب هذه الباقية من قصائد الرثاء التي اخترتها القراء
الأغزاء، فأكون قد وفقت في عملي، وإلا فحسبي أنني حاولت، والله وليّ
التوفيق.

المؤلف



المهلل

هو عديّ بن ربيعة التغلبيّ، وخال الشاعر امرئ القيس، لقّب بالزّير لكثرة مجالسته النساء. كان يقضي أيّامه في اللهو وشرب الخمر. وكان له أخ اسمه وائل، ولقبه كليب، وامراته جليلة بنت مرّة الشّيباني من بكر، وكان لمرّة عشرة بنين أصغرهم جسّاس. وحدث يوماً أن نزلت حالة جسّاس، واسمها البسوس، على جسّاس، فرمى كليب ناقتها وفصيلها بقوسه، فقتل الفصيل، وراحت الناقة تعجّ. فلما رأتها البسوس صاحت: «واذلاًه». فقال لها جسّاس: اسكتي، فلكِ بناقتكِ ناقةٌ أعظم منها». فأبت إلاّ رأس كليب. فقتل جسّاس كليباً، وهبّ المهلل يطلب ثأر أخيه، ونشبت الحرب بين بكر وتغلب، فدامت أربعين سنة ودُعيتُ حرب البسوس. وقد أبدى المهلل في تلك الحرب شجاعة نادرة، وأسِر في آخر الأمر، ومات في أسره سنة ٥٣١ م.

للمهلل ديوان شعر أهمّ ما فيه رثاؤه لأخيه كليب. ورثاؤه مزيج من دمع وحرب، من عاطفة رقة تنبعث من قلب محبّ، وعاطفة خشونة تنبعث من حالة البراءة والفطرة.

رثاء كليب

أهَّاجَ قَدْأَةً عَيْنِي الْآذْكَارُ
هُدُوءًا فَالْدُّمُوعُ لَهَا انْجِدَارُ^(١)
وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا
كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ نَهَارُ
وَبِتُّ أَرَاقِبُ الْجُوزَاءَ حَتَّى
تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا أَنْحِدَارُ^(٢)
أَصْرَفْتُ مُقْلَتِي فِي إِثْرِ قَوْمِ
تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ بِهِمْ فَغَارُوا^(٢)
وَأَبْكِي وَالنَّجُومُ مُطْلَعَاتُ
كَأَنَّ لَمْ تَحْوِهَا عَنِّي الْبَحَارُ
عَلَى مَنْ لَوْ نُعِيتُ وَكَانَ حَيًّا
لَقَادَ الْخَيْلَ يَحْجُبُهَا الْغُبَارُ
دَعَاؤُكَ يَا كُليبُ فَلَمْ تُجِبْنِي
وَكَيْفَ يُجِيبُنِي الْبَلَدُ الْقِفَارُ
أَجِبْنِي يَا كُليبُ خَلَكَ دَمٌ
ضَنِينَاتُ النُّفُوسِ لَهَا مَزَارُ
أَجِبْنِي يَا كُليبُ خَلَكَ دَمٌ
لَقَدْ فُجِعْتُ بِفَارِسِهَا نِزَارُ

(١) القداة: ما يخرج من العين الرمداء. هدوء: في هدأة الليل، سكونه.

(٢) الجوزاء: برج في السماء.

سَقَاكَ الْغَيْثُ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثًا
وَيُسْرًا حِينَ يُلْتَمَسُ الْيَسَارُ
أَبَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ أَنْ تَكُفَّا
كَأَنَّ غَضَى الْقَتَادِ لَهَا شِفَارُ^(١)
وإِنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجَالٍ
وَتَعْفُو عَنْهُمْ وَلَكَ أَقْتِدَارُ

المهلهل

(١) الغَضَى: نوع من الشجر. القَتَاد: الشوك. الشِفَار: منابت أهداب العين.

الخنساء

هي أم عمرو بنت عمرو بن الشريد السلمية الملقبة بالخنساء. ولدت نحو سنة ٥٧٥ م، ونشأت في بيت ثروة وجاه. وكان لها أخوان: معاوية وصخر، وكان صخر يعطف عليها بنوع خاص، فقتل كلاهما. وكان لمقتلهما صدى بعيد في نفسها، فبكت حتى تقرحت مقلتاها، بل حتى عميت، وذاب قلبها التيعاء، ورثتهما بشعر رقيق، وحصت صخرًا بالقسم الأكبر منه. وقد أدركت الإسلام فاعتنقته مع بنيتها، وكانت وفاتها سنة ٦٦٤ م.

لها ديوان شعر كله في رثاء أخويها، ولا سيما صخر، يشعر من يقرأه أنه في مأتم يسمع فيه عويل النائحات، وندب النادبات. هو ديوان امرأة أصيبت في الصميم، وفقدت من تحب ومن كان للحرب سيفاً بشاراً، وللمجالس سيداً مختاراً، وللقري والضيفة نحراراً، وللنجدة فارساً مغواراً. وهي، في رثائها، تتمثل أبدأ أخاها وتخطبه، وتصوره بحب أخوي صادق، وتبكي ولا تمل من مخاطبة العينين تسألهما الدمع، والعينان تجيبان، وإذا الدمع نار في هشيم، وإذا اللوعة أبدأ في ازدياد. وفيما يلي بعض النماذج من رثائها.

رثاء صخر

يُورِّقُنِي التَّذْكَرُ حِينَ أُمْسِي
فَأُصْبِحُ قَدْ بُلِيتُ بِفَرْطِ نُكْسٍ
عَلَى صَخْرٍ، وَأَيُّ فَتَى كَصَخْرٍ
لِيَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَطِعَانٍ خَلَسٍ (١)
فَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ رُزْءًا لِحَيْنٍ،
وَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ رُزْءًا لِإِنْسٍ (٢)
يُذَكِّرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا
وَأَذْكَرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسِي!
وَلَكِنْ لَا أَزَالُ أَرَى عَجُولًا
وَبَاكِئَةً تُنُوحُ لِيَوْمِ نَحْسٍ (٣)
أَرَاهَا وَإِلَهَا تَبْكِي أَخَاهَا
عَشِيَّةَ رُزْئِهِ، أَوْ غِبَّ أُمْسٍ
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي، وَلَكِنْ
أُعْزِي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي (٤)
فَلَا، وَاللَّهِ لَا أُنْسَاكَ حَتَّى
أَفَارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقَّ رَمْسِي

(١) طعان خلس: أي طعان فيه إعجال وشجاعة وحذر.

(٢) الرزء: المصيبة.

(٣) العجول: الثكلى الشديدة الحزن من النساء.

(٤) التأسي: التصبر.

فَقَدْ وَدَّعْتُ، يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ
أَبِي حَسَّانَ، لَذَّائِي وَأُنْسِي
فِيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَلَهْفَ أُمِّي
أُضْبِحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمِسي!

قَذَى بَعِينِكَ

قَذَى بَعِينِكَ أُمُّ بِأَلْعَيْنِ عَوَّارُ أُمُّ
ذَرَفْتُ أَنَّ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ؟^(١)
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ، إِذَا خَطَرْتُ
فَيْضُ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ، مِذْرَارُ
تَبْكِي لِصَخْرٍ، هِيَ الْعَبْرَى، وَقَدْ وَلَّ
هَتْ وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أُسْتَارُ^(٢)
تَبْكِي خُنَاسُ، فَمَا تَنْفَكُ، مَا عَمَرْتُ،
لَهَا عَلَيْهِ رَنِينُ، وَهِيَ مِفْتَارُ^(٣)
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ، وَحَقُّ لَهَا،
إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ
لَا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ فِي صَرْفِهَا غَيْرُ
وَالدَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوَارُ^(٤)

(١) العوار: رمد العين. أن خلت: أي لأن خلت.

(٢) العبرى: التي لا تجف دموعها. ولهت: اشتد جزعها. الأستار: طبقات التراب فوق الميت.

(٣) المفتار: المنكسرة.

(٤) في صرفها: في حدوثها وتصرفها. غير الدهر: نوائبه. الحول: التحول.

قَدْ كَانَ فِيكُمْ أَبُو عَمْرٍو يَسُودُكُمْ
 نِعَمَ الْمُعَمَّمِ، لِلدَّاعِينَ نَصَارُ^(١)
 صُلْبُ النَّحِيزَةِ، وَهَابٌ، إِذَا مُنِعُوا
 وَفِي الْحُرُوبِ جَرِيءُ الصَّدْرِ مَهْصَارُ^(٢)
 يَا صَخْرُ وَرَادَ مَاءٍ قَدْ تَنَازَرَهُ
 أَهْلُ الْمَوَارِدِ، مَا فِي وَرْدِهِ عَارُ^(٣)
 مَشَى السَّبَنْتَى إِلَى هَيْجَاءِ مُعْضِلَةٍ
 لَهُ سِلَاحَانٍ: أَنْيَابٌ وَأُظْفَارُ^(٤)
 وَإِنْ صَخْرًا لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا
 وَإِنْ صَخْرًا، إِذَا نَشْتُو، لَنَحَارُ^(٥)
 وَإِنْ صَخْرًا لِمِقْدَامٍ إِذَا رَكِبُوا
 وَإِنْ صَخْرًا، إِذَا جَاعُوا، لَعَقَارُ^(٦)
 أَغْرُ أَبْلَجُ، تَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ
 كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(٧)

(١) المعمم: المسود.

(٢) النحيزة: الطبيعة. المهصار: الكثير الدق للأعناق.

(٣) وزاد ماء: أرادت إقدامه على الموت. تناذره: أُنذر بعضهم بعضاً بصعوبته وهوله. أهل الموارد: أي الأبطال.

(٤) السبنتى: النمر. الهيجاء المعضلة: الحرب الشديدة.

(٥) نشتو: ندخل في الشتاء.

(٦) العقار: من عقر الإبل أي حصد قوائمها بالسيف لكيلا تشرذم وقت النحر.

(٧) الأغر: الكريم والشريف. الأبلج: المشرق الوجه.

جَلْدٌ، جَمِيلٌ الْمُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ
 وَلِلْحُرُوفِ، غَدَاةَ الرَّوْعِ، مِسْعَارُ^(١)
 حَمَّالُ الْوَيْةِ، هَبَّاطُ أَوْدِيَةِ
 شَهَادُ أَنْدِيَةِ، لِلْجَيْشِ جَرَّارُ
 وَلَا تَرَاهُ، وَمَا فِي الْبَيْتِ، يَأْكُلُهُ
 لَكِنَّهُ بَارِزٌ بِالصُّحْنِ مِهْمَارُ^(٢)
 قَدْ كَانَ خَالِصَتِي مِنْ كُلِّ ذِي نَسَبٍ
 فَقَدْ أُصِيبَ، فَمَا لِلْعَيْشِ أَوْطَارُ^(٣)

(١) الجلد: الصبور. الورع: المجنب لما فيه إثم. الروع: الخوف والحرب. المسعار: موقد نار الحرب.
 (٢) المهمار: الكثير البذل.
 (٣) خالصتي: من يخلص الي المودة.



متمم بن نويرة

هو متمم بن نويرة بن جمرة اليربوعي التميمي (. . . - نحو ٣٠ هـ / نحو ٦٥٠ م) شاعر فحل ، صحابي ، من أشراف قومه ، اشتهر في الجاهلية والإسلام . قُتل أخوه مالك في حرب الردّة ، فرثاه رثاءً حاراً ، وظلّ يبكيه حتّى ابيضّت عيناه من الحزن ، وحتّى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له ، وصار ندبه لأخيه مصير الأمثال ، ومن بديع قوله فيه :

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ
صَدِيقِي لَتَذُرَافِ الدَّمْعِ السُّوَافِكِ
يَقُولُ : أَتُبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ
لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالذُّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى
فَدَعْنِي ، فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

* * *

أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَإِنِّي
أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا^(١)

(١) أقطع : مقطوع .

وَإِنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ
 وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعَا
 تَحْيِيَّتُهُ مِنِّي وَإِنْ كَانَ نَائِيًّا
 وَأَمْسَى تُرَاباً فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلَقَعَا^(١)
 فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا
 فَقَدْ بَانَ^(٢) مَحْمُوداً أَخِي جِئِن وَدَّعَا
 وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَذِيمَةً حَقَبَةً
 مِنَ الدُّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا^(٣)
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
 لِيَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
 وَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى أَصَاب مُتَالِعَا
 أَوْ الرُّكْنَ مِنْ سَلَمَى إِذَنْ لَتَضَعَضَعَا^(٤)

(١) بلقع: أرض قفر.

(٢) بان: فارق.

(٣) جذيمة هو جذيمة الأبرش نادم مالكا وعقيل ابن فارج بن كعب ثم قتلها. يتصدعا: يتفرقا.

(٤) متالع وسلمى: جبلان.

حسان بن ثابت الأنصاري

هو حسان بن ثابت الأنصاري (. . . - ٥٤ هـ / ٦٧٤ م) الصحابي ،
شاعر النبي ﷺ . عاش ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها في الإسلام . قال أبو
عبدة : فضل حسان الشعراء بثلاثة : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر
النبي في النبوة ، وشاعر اليمانيين في الإسلام .
من أهم قصائده تلك التي رثى بها الرسول ﷺ ، وفيما يلي بعض
أبياتها :

رثاء الرسول

بَطِيَّةَ رَسْمٍ لِلرُّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيرٍ وَقَدْ تَغْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ^(١)
وَلَا تَنْمَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مِنْبَرُ أَهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ^(٢)

(١) طيبة : هي مدينة النبي ، وهو ، صلوات الله عليه ، الذي سمّاها بذلك . المعهد : المنزل
الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه . الهمود : البلى في كل شيء .
(٢) الآيات : جمع آية وهي العلامة ، وقوله «الذي كان يصعد» أي المنبر الذي كان يصعده
الهادي صلوات الله عليه .

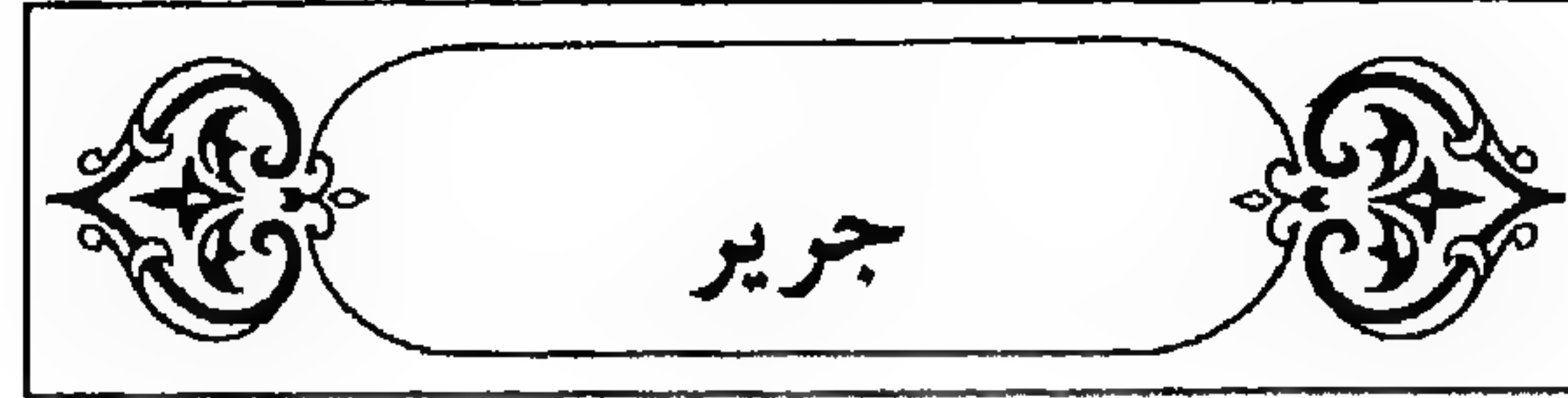
وَوَاضِحُ آيَاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمٍ
 وَرَبُّعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ
 بِهَا حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
 مِنْ آلِهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ^(١)
 مَعَالِمٌ لَمْ تَطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا
 أَتَاهَا أَلْبَلَى فَلَايُ مِنْهَا تَجَدَّدُ^(٢)
 عَرَفْتُ بِهَا رَسَمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ
 وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ
 ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ
 عُيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنْ أَلْجَفْنِ تُسْعِدُ^(٣)
 تَذَكَّرُ آلاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
 لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي فَنَنْفِسِي تَبْلَدُ^(٤)
 مُفْجَعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ
 فَظَلْتُ لِإِلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ^(٥)

-
- (١) الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن السيد الرسول.
 (٢) لم تطمس: لم تتغير. آيها: أي إن آياتها لا تزال على ما تعهد. الأي منها تجدد: أي تتجدد، ولعل المراد بالأي ههنا آيات الذكر الحكيم.
 (٣) فأسعدت عيون: أي فأعانتني عيوني وساعدتني فأنتني بالدموع لمكان اللوعة مني. وقوله «ومثلاها من الجفن» جفن العين غطاء العين من أعلى وأسفل، والمراد بالجفن هنا العين نفسها. يقول: ومثل عيني تواتي بالدمع.
 (٤) فوله «تذكر» بحذف إحدى التاءين: أي تتذكر، والفاعل قوله: «نفسى». وقوله «تبلد» إنما هو تتبلد بحذف إحدى التاءين كذلك، وتبلد: أي تلحقها حيرة، والتبلد أيضاً نقيض التجلد، وهو استكانة وخضوع.
 (٥) مفجعة: يقال فجعته المصيبة وفجعته: أوجعته فهو مفجع أي موجه، والفاجعة الرزية =

وَمَا بَلَغْتُ مِنْ كُلِّ أَمْرِ عَشِيرَةٍ
 وَلَكِنْ نَفْسِي بَعْضَ مَا فِيهِ تَحَمُّدٌ^(١)
 أَطَالَتُ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهِدَهَا
 عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
 فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكْتَ
 بِبِلَادِ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ^(٢)

=الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعزّ عليه من مال أو حميم. شفّه عليه الحزن والهمّ: لدع قلبه وأضمّره وهزله حيث رَقَّ. وهو من قولهم شَفَّ الثوب إذا رَقَّ حتى يصف جلد لابسّه تعدّد مضارع عدد أي عدّ.

- (١) العشير: في الأصل كالعشر: الجزء من أجزاء العشرة، وجمع العشير أعشراء مثل نصيب وأنصباء وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر.
- (٢) المسدّد: يُقال سدّده الله وفقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل.



هو أبو حرزة جرير بن عطية (٣٣ هـ / ٦٥٣ م - ١١٤ هـ / ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قوياً شديد اللهجة، فذاع صيته، ورددت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائية دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسميت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعر في المدح، والثناء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهّد لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تترأى فيه ذكريات الرجل أحبة وصفات محببة إلى كل نفس، وأعمالاً غراء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعية واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء امرأته، فقال:

رثاء امرأته

لَوْلَا الْحَيَاءُ، لَعَادَنِي أَسْتِعْبَارُ،
وَلَزُرْتُ بَيْتَكَ، وَالْحَبِيبُ يُزَارُ^(١)
وَلَقَدْ نَظَرْتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظَرَةٍ
فِي اللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الْمُحْفَارُ^(٢)
وَلَهَتْ قَلْبِي، إِذْ عَلَّتْنِي كَبْرَةٌ،
وَذَوُّو التَّمَائِمِ مِنْ بَنِيكَ صِغَارُ^(٣)
أَرْعَى النُّجُومَ، وَقَدْ مَضَتْ غُورِيَّةُ،
عُصْبُ النُّجُومِ كَأَنَّهُنَّ صُورُ^(٤)
نِعَمَ الْقَرِينِ، وَكُنْتُ عِلْقَ مَضْنَةٍ
وَأَرَى بِنَعْفِ بُلْيَةِ الْأَحْجَارِ^(٥)
عَمَرْتُ مُكْرَمَةَ الْمَسَاكِ وَفَارَقْتُ
مَا مَسَّهَا صَلْفٌ وَلَا إِقْتَارُ^(٦)

(١) استعبار: بكاء. بيتك: قبرك.

(٢) المحفار: آلة الحفر.

(٣) ولهة: حزينة أشد الحزن. التمايم ج تيممة وهي خرزة أو عوذة تُعلّق في عنق الولد د للأخطار.

(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط. العصب: الجماعات. الصوار: قطع الوحش.

(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضمن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الوادي؛ بلية: اسم موضع.

(٦) الصلف: الكبرياء. الاقتار: العسر.

فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِرُقَّةٍ ضَاحِكٍ
هَزِمٌ أَجَشُّ، وَدِيمَةٌ مِذْرَارٌ^(١)
هَزِمٌ أَجَشُّ، إِذَا اسْتَحَارَ بِبَلْدَةٍ
فَكَأَنَّمَا بِجَوَائِهَا الْأَنْهَارُ^(٢)
مُتَرَائِمٌ زَجَلٌ يُضِيءُ وَمِيضُهُ
كَالْبُلْقِ تَحْتَ بُطُونِهَا الْأَمْهَارُ^(٣)
كَانَتْ مُكْرَمَةً الْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ
يَخْشَى غَوَائِلَ أُمَّ حَزْرَةَ جَارُ^(٤)
وَلَقَدْ أَرَاكَ كُسَيْتٍ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ،
وَمَعَ الْجَمَالِ سَكِينَةً وَوَقَارُ
وَالرَّيْحُ طَيِّبَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا
وَالْعِرْضُ لَا دَنْسٌ وَلَا خَوَارُ^(٥)
وَإِذَا سَرَيْتُ، رَأَيْتُ نَارَكَ نَوْرَتْ
وَجْهًا أَغْرُ، يَزِينُهُ الْإِسْفَارُ
صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخَيِّرُوا
وَالصَّالِحُونَ عَلَيْكَ، وَالْأَبْرَارُ

(١) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القليل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٢) الجواء ج جو وهو الناحية والجهة.

(٣) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

(٤) الغوائل: المصائب.

(٥) الخوار: الضعيف.

وَعَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكَ كُلَّمَا
 نَصَبَ الْحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ، وَغَارُوا^(١)
 يَا نَظْرَةً لَكَ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةٌ
 مِنْ أُمِّ حَزْرَةٍ، بِالنُّمَيْرَةِ دَارُ
 تُحْيِي الرُّوَامِسُ رُبْعَهَا، فَتُجِدُّهُ
 بَعْدَ الْبَلَى، وَتُمِيتُهُ الْأَمْطَارُ^(٢)
 وَكَأَنَّ مَنَزِلَةً لَهَا، بِحُلَاحِلِ
 وَحْيِ الزُّبُورِ تُجِدُّهُ الْأَخْبَارُ^(٣)
 لَا تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي،
 لَا يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ الْإِكْثَارُ
 كَانَ الْخَلِيطُ هُمْ الْخَلِيطُ، فَأُضْبَحُوا
 مُتَبَدِّلِينَ، وَبِالْدِّيَارِ دِيَارُ
 لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
 لَيْلُ يَكْرُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ

رثاء ابنه

[وقال يرثي ابنه سودة وقد توفي بالشام]:

قَالُوا: نَصِيُّكَ مِنْ أَجْرِ فَقُلْتُ لَهُمْ
 مَنْ لِلْعَرِينِ، إِذَا فَارَقْتُ أَشْبَالِي؟

(١) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدین: مقيمین. غار الرجل: نام.

(٢) الروامس: الرياح.

(٣) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

لَكِنْ سَوَادُهُ يَجْلُو مُقْلَتِي لَحْمٍ
 بَازٍ، يُصْرِصِرُ فَوْقَ الْمَرْقَبِ الْعَالِي^(١)
 قَدْ كُنْتُ أَغْرِفُهُ مِنِّي، إِذَا غَلَقْتُ
 رَهْنُ الْجِيَادِ، وَمَدُّ الْغَايَةِ الْغَالِي^(٢)
 إِلَّا تَكُنْ لَكَ بِالذَّيْرَيْنِ بَاكِئَةً
 قَرُبٌ بَاكِئَةٍ بِالرَّمْلِ مِعْوَالٍ
 كَامٍ بِوَعَجُولٍ، عِنْدَ مَعْهَدِهِ،
 حَنَّتْ إِلَى جِلْدٍ مِنْهُ وَأَوْصَالٍ^(٣)
 تَرْتَاغُ مَا نَسِيَتْ، حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ، رَدَّتْ
 هَمَاهِمَ، حَرَى الْجَوْفِ، مِثْكَالٍ^(٤)
 زِدْنَا عَلَى وَجْدِهَا وَجْدًا، وَإِنْ رَجَعَتْ،
 فِي الْقَلْبِ مِنْهَا خُطُوبٌ ذَاتُ بَلْبَالٍ^(٥)
 فَارْقَتْنِي، حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصْرِي،
 وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي^(٦)
 إِنَّ الثَّوِيَّ بِذِي الزُّيْتُونِ، فَاحْتَسِبِي،
 قَدْ أَسْرَعَ الْيَوْمَ فِي عَقْلِي وَفِي حَالِي^(٧)

(١) باز لحم: يأكل اللحم أو يشتهي. صرصر البازي: صات. المرقب: الموضع المشرف يعلوه الرقيب.

(٢) غلق الرهن: صار ملك المرتهن.

(٣) البو: ولد الناقة، إذا مات يجشى جلده تبناً فيقرب من أمه، فتخدع وتعطف عليه وتدرّ. الجلد بفتح الجيم واللام: الجلد بكسر الجيم وسكون اللام.

(٤) الهماهم: الأصوات مع بحة. الميثال: الكثيرة الشكل.

(٥) البلبال: الهم والوسوسة.

(٦) الرمة: ما بلي من العظام.

(٧) الثوي: الميت.

في رثاء معن بن زائدة

كان معن بن زائدة (. . . - ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) من أشهر أجواد العرب ،
وأحد الشجعان الفصحاء ، والولاة المشهورين . عندما توفي رثاه عدد من
الشعراء من بينهم مروان بن أبي حفصة ، والحسين بن مطير . قال ابن أبي
حفصة في رثائه :

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى
مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالَا
كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ
مِنْ الْإِظْلَامِ مُلْبَسَةً ظِلَالَا
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَانَتْ نَزَارُ
تَهْدُ مِنْ الْعَدُوِّ بِهِ الْجَبَالَا
وَعُطِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ
وَقَدْ يَرْوِي بِهَا الْأَسْلَ النَّهَالَا^(١)
وَأَظْلَمَتِ الْعِرَاقُ وَأَوْرَثَتْهَا
مُصِيبَتُهُ الْمَجْلَلَةَ أَعْتَالَا
وَوَظَلَ الشَّامُ يَرْجُفُ جَانِبَاهُ
لِرُكْنِ الْعِزِّ جَيْنَ وَهَى فَمَالَا
وَكَادَتْ مِنْ تُهَامَةٍ كُلِّ أَرْضٍ
وَمِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَدَاةَ زَالَا
فَإِنْ يَعْلُ الْبِلَادَ لَهُ خُشُوعٌ
فَقَدْ كَانَتْ تَطُولُ بِهِ آخِثَالَا

(١) الثغور: الأماكن المحصنة على الحدود: الأسل النبال. الرماح العطاش.

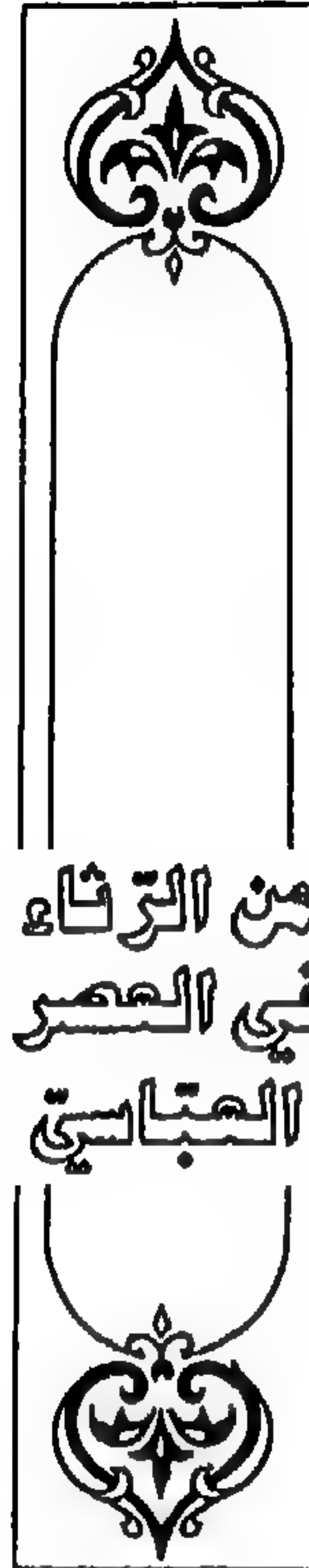
أَصَابَ الْمَوْتُ يَوْمَ أَصَابَ مَعْنًا
 مِنْ الْأَحْيَاءِ أَكْرَمَهُمْ فَعَالَا
 وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنٍ
 إِلَى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ عِيَالَا
 وَلَمْ يَكُ طَالِبٌ لِلْعُرْفِ يَنْوِي
 إِلَى غَيْرِ آبِنِ زَائِدَةٍ آرْتِحَالَا^(١)
 مَضَى مَنْ كَانَ يَحْمِلُ كُلَّ عِبٍّ
 وَيَسْبِقُ فَضْلُ نَائِلِهِ السُّؤَالَا
 وَمَا كَانَتْ تَجِفُّ لَهُ حِيَاضُ
 مِنَ الْمَعْرُوفِ مُتْرَعَةً سَجَالَا
 مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنْتَ تَرْجُو
 بِهِ عَثَرَاتٍ دَهْرَكَ أَنْ تُقَالَا
 فَلَسْتَ بِمَالِكٍ عَبْرَاتٍ عَيْنٍ
 أَبَتْ بِدُمُوعِهَا إِلَّا أَنَّهُمَا
 وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ
 وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالَا؟
 سَيَذْكُرُكَ الْخَلِيفَةُ غَيْرَ قَالٍ
 إِذَا هُوَ فِي الْأُمُورِ بِلَا الرِّجَالَا
 وَلَا يَنْسَى وَقَائِعَكَ اللُّوَاتِي
 عَلَى أَعْدَائِهِ جُعِلَتْ وَبَالَا.

(١) العرف: العمل الطيب.

وقال الحسين بن مطير:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ
 سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا
 فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
 وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَحْرُ وَالْبَرُّ مُثْرَعًا
 وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْمَكَارِمِ مَضْجَعًا
 بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيَّتٌ
 وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضُفَّتْ حَتَّى تَصْدُعَا
 فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
 كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
 وَلَمَّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الْجُودُ وَأَنْقَضَى
 وَأَصْبَحَ عِرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا^(١)

(١) العرنين: الأنف. جدع أنفه: أي أذله.



أبو تمام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (١٨٨ هـ / ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م) شاعر، وأديب، وأحد أمراء البيان. ولد في جاسم من قرى حوران بسورية، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه، وقدمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري.

له ديوان شعر في مختلف الفنون الأدبية الغنائية التي عرفها العرب. من أشهر مراثيه تلك التي رثا بها محمد بن حميد الطوسي، أحد قواد جيش المأمون العباسي. قال فيها:

كَذَا فَلْيَجْلُ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفْضِرْ مَاؤُهَا عُذْرُ^(١)
تُؤْفِيَتِ الْأَمَالُ بَعْدَ مُحْمَدٍ
وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السُّفْرُ^(٢)

(١) يجلّ: يعظم. ويفدح: يثقل ويصعب.

(٢) السفر: قطع المسافة. والسفر المسافرون.

وما كان إلا مال من قل ماله
 وذخراً لمن أمسى وليس له ذخراً
 وما كان يذري مجتدي جود كفيه
 إذا ما استهلّت أنه خلق العسر^(١)
 ألا في سبيل الله من عطلت له
 فجاج سبيل الله وانتغر الثغر^(٢)
 فتى كلما فاضت غيون قبيلة
 دماً ضحكك عنه الأحاديث والذكر
 فتى دهره شطران فيما ينوبه
 ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
 فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
 تقوم مقام النضر إن فاته النضر
 وما مات حتى مات مضرب سيفه
 من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
 وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
 إليه الحفاظ المر والخلق الوعر^(٣)
 ونفس تعاف العار حتى كأنما
 هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر^(٤)

(١) المجتدي: الطالب الجدوى أي العطية.

(٢) الفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع.

(٣) الحفاظ: الذب عن المحارم، والمواظبة على العمل. والوعر: الصعب.

(٤) تعاف: تكرر. والروع: الحرب.

فَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ
 وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ^(١)
 غَدَا غَدَوَةٌ وَالْحَمْدُ نَسْجُ رِدَائِهِ
 فَلَمْ يَنْصَرِفْ إِلَّا وَاكْتَفَانَهُ الْأَجْرُ
 تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى
 لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضْرُ
 كَأَنَّ بَنِي نَبَهَانَ يَوْمَ وفَاتِهِ
 نُجُومٌ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَذْرُ^(٢)
 يُعْزُونَ عَنْ ثَاوٍ تُعْزَى بِهِ الْعُلَى
 وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْبَاسُ وَالْجُودُ وَالشُّعْرُ
 وَأَنْتَى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى
 إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى اسْتَشْهِدَا هُوَ وَالصَّبْرُ
 فَتَى كَانَ عَذَبَ الرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاضَةٍ
 وَلَكِنْ كِبَرًا أَنْ يَقَالَ بِهِ كِبَرُ
 فَتَى سَلَبَتْهُ الْخَيْلُ وَهُوَ جَمَى لَهَا
 وَبَزَّتْهُ نَارُ الْحَرْبِ وَهُوَ لَهَا جَمْرُ^(٣)
 وَقَدْ كَانَتْ الْبَيْضُ الْمَآثِيرُ فِي الْوَعَى
 بِوَاتِرٍ فَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُشْرُ^(٤)

(١) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

(٢) خر: سقط.

(٣) بزت: سلبت.

(٤) المآثير: السيوف التي في متونها أثر. والبواتر: القواطع. والبتر: المقطوعة.

أَمِنْ بَعْدِ طَيِّ الْحَادِثَاتِ مُحَمَّداً
 يَكُونُ لِأَثْوَابِ النَّدَى أَبَداً نَشْرُ
 إِذَا شَجَرَاتُ الْعُرْفِ جُدَّتْ أَصُولُهَا
 فِي أَيِّ فَرْعٍ يُوجَدُ الْوَرَقُ النَّضْرُ^(١)
 لَيْتُنْ أَبْغَضَ الدَّهْرُ الْخَوُونَ لِفَقْدِهِ
 لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ
 لَيْتُنْ غَدَرْتُ فِي الرَّوْعِ أَيَّامُهُ بِهِ
 فَمَا زَالَتِ الْأَيَّامُ شِيَمَتُهَا الْغَدْرُ^(٢)
 لَيْتُنْ أَلْبَسْتُ فِيهِ الْمَصِيبَةَ طَيِّئاً
 فَمَا عَرِثَ مِنْهَا تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
 كَذَلِكَ مَا نَنَفَكُ نَفَقُذْ هَالِكاً
 يَشَارِكُنَا فِي فَقْدِهِ الْبَدُوُّ وَالْحَضَرُ
 سَقَى الْغَيْثُ غَيْثاً وَارَتْ الْأَرْضُ شَخْصَهُ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا قَطْرُ^(٣)
 وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِلْغُيُوثِ صَنِيعَةً
 بِإِسْقَائِهَا قَبْراً وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ
 مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ
 غَدَاةٌ ثَوَى إِلَّا أَشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ^(٤)

(١) جدت: قطعت.

(٢) الشيمة: العادة والطبيعة.

(٣) وارت: أخفت.

(٤) ثوى: مات.

ثَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى
وَيَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الْغَمْرُ^(١)
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَاً فَإِنِّي
رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرُ

وقال يرثي أخاه:

إِنِّي أَظُنُّ الْبَلَى لَوْ كَانَ يَفْهَمُهُ
صَدُّ الْبَلَى عَنْ بَقَايَا وَجْهِهِ الْحَسَنِ
يَا يَوْمَهُ لَمْ تَدْعُ حُسْنًا وَلَا أَدْبًا
إِلَّا حَكَمْتَ بِهِ لِلْحَدِّ وَالْكَفَنِ
لِلَّهِ مُقَلَّتُهُ! وَالْمَوْتُ يَكْسِرُهَا
كَأَنَّ أَجْفَانَهُ سَكَّرَى مِنَ الْوَسَنِ
يَرُدُّ أَنْفَاسَهُ كَرَهَا وَتَغْطِفُهَا
يَدُ الْمَنِيَّةِ عَطَفَ الرِّيحِ لِلْغُصَنِ
يَا هَوْلَ مَا أَبْصَرْتَ عَيْنِي وَمَا سَمِعْتَ
أُذُنِي فَلَا أَبْصَرْتَ عَيْنِي وَلَا أُذُنِي
لَمْ يَتَّقْ مِنْ بَدَنِي جُزْءٌ عَلِمْتُ بِهِ
إِلَّا وَقَدْ حَلَّهُ جُزْءٌ مِنَ الْحَزَنِ
كَانَ اللَّحَاقُ بِهِ أَهْنًا وَأَحْسَنَ بِي
مِنْ أَنْ أَعِيشَ سَقِيمَ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ.

(١) الغمر: الكثير.

ابن الرومي

هو أبو الحسن عليّ بن العباس بن جُريج (٢٢١هـ / ٨٣٥م - ٢٨٣هـ / ٨٩٦م). ولد في بغداد من أب روميّ، وأمّ فارسيّة. أكبّ على تحصيل العلم حتى استقامت له ثقافة واسعة من لغة وأدب وفلسفة ودين. توالى المَحَن عليه، فمات والده وهو حَدَث، ومات أخوه في شبابه، ومات أبنائُه الثلاثة، وماتت زوجته، والتهبت النيران بعض أملاكه، واغتصب الظلم البعض الآخر.

له ديوان ضخم من الشعر عالج فيه جميع الموضوعات الشائعة عند العرب. وفي الرثاء يندفق ابن الروميّ اندفاعاً لأنّه يرثي من يحبّ، ويرثي في حالة من الانفعال شديدة، وفي حالة من الحزن المتجمّع المتراكم شديدة أيضاً. وكان يخاطب الميت في لهفة المحبة ولوعة الفراق، ويسكب نفسه عليه حسرة، ويُفصّل ما يعانيه من شقاء بعد فراقه، فيذكر آلامه، ووحشته، وسهرة في ظلمات الليالي، ودموعه المتساقطة في غزارة وحرارة، ويذكر كيف مات الفقيد، وكيف زالت بالموت صفاته، فيتحسّر عليها تحسّراً يكسر القلب، وقد يخاطب تلك الصفات، ويتدرف عليها العبرات، والذي يقرأ شعره يحزن للشاعر وسوء حاله أكثر ممّا يحزن للفقيد.

رثاء ابنه الثالث

أُبْنِيَّ! إِنَّكَ وَالْعَزَاءُ، مَعًا،
 بِالْأَمْسِ لُفَّ عَلَيْكُمَا كَفَنُ
 تَاللَّهِ، لَا تَنْفَكُ لِي شَجَنًا،
 يَمْضِي الزَّمَانُ، وَأَنْتَ لِي شَجَنُ
 مَا أَصْبَحْتَ دُنْيَايَ لِي وَطَنًا،
 بَلْ حَيْثُ دَارُكَ، عِنْدِي الْوَطَنُ
 مَا فِي النَّهَارِ، وَقَدْ فَقَدْتُكَ، مِنْ
 أُنْسٍ، وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي سَكَنُ^(١)
 وَلَقَدْ تُسَلِّي الْقَلْبَ ذِكْرُهُ
 أَنِّي بِأَنَّ الْقَاكَ مُرْتَهَنُ^(٢)
 أَوْلَادَنَا! أَنْتُمْ لَنَا فِتْنُ
 وَتُفَارِقُونَ، فَأَنْتُمْ مِحَنُ!^(٣)

رثاء ولده الأوسط

بُكَاءُكُمَا يَشْفِي، وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي،
 فَجُودًا، فَقَدْ أَوْدَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِي^(٤)
 أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْمَنَايَا وَرَمِيَهَا،
 مِنْ الْقَوْمِ، حَبَاتِ الْقُلُوبِ، عَلَى عَمْدِ

(١) السكن: الاستئناس.

(٢) ذكرته: أي تذكر القلب. مرتهن: مقيد.

(٣) الفتن: موضوع إعجاب وحب شديد يبلغ الجنون.

(٤) بكاءكما: خطاب لعينه.

تَوَخَّى حَمَامُ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيَّتِي،
 فَلِلَّهِ، كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعِقْدِ^(١)
 عَلَى حِينِ شِمْتُ الْخَيْرَ مِنْ لَمَحَاتِهِ،
 وَأَنْسْتُ مِنْ أَفْعَالِهِ آيَةَ الرُّشْدِ^(٢)
 طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي، فَأَضْحَى مَزَارُهُ
 بَعِيداً عَلَى قُرْبٍ، قَرِيباً عَلَى بُعْدٍ
 لَقَدْ أَنْجَزْتُ فِيهِ الْمَنَايَا وَعِيدَهَا،
 وَأَخْلَفْتُ الْأَمَالَ مَا كَانَ مِنْ وَعْدٍ
 لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللَّحْدِ لَبُثُهُ،
 فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ، إِذْ ضُمَّ فِي اللَّحْدِ
 أَلْحُ عَلَيْهِ النَّزْفُ، حَتَّى أَحَالَهُ
 إِلَى صُفْرَةِ الْجَادِي عَنِ حُمْرَةِ الْوَرْدِ^(٣)
 وَظَلَّ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسُهُ،
 وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي الْقَضِيبُ مِنَ الرُّنْدِ^(٤)
 فَيَا لَكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُساً
 تَسَاقُطُ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلا عَقْدٍ
 عَجِبْتُ لِقَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
 وَلَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الصَّلْدِ^(٥)

(١) واسطة العقد: الجوهرة التي في وسطه.

(٢) شمت: رأيت. أنست: نظرت. الآية: العلامة.

(٣) الجادي: الزعفران.

(٤) يدوي: يذبل. الرند: شجر طيب الرائحة.

(٥) ينفطر: ينشق. الصلد: الصلب.

وَمَا سَرَّني أَنْ يَغْتُهُ بِشَوَابِهِ
 وَلَوْ أَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
 وَلَا يَغْتُهُ طَوْعاً وَلَكِنْ غُصِبَتْهُ
 وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ الْحَوَادِثِ مِنْ مُعْدٍ^(١)
 وَإِنِّي وَإِنْ مُتَّعْتُ بِأَبْنِي بَعْدَهُ
 لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ فِي نَجْدٍ^(٢)
 وَأَوْلَادُنَا مِثْلُ الْجَوَارِحِ أَيُّهَا
 فَقَدْ نَاهُ كَانَ الْفَاجِعَ الْبَيْنَ الْفَقْدِ
 لِكُلِّ مَكَانٍ لَا يَسُدُّ اخْتِلَالَهُ
 مَكَانُ أَخِيهِ مِنْ جَزُوعٍ وَلَا جُلْدٍ^(٣)
 هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ
 أَمْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي
 لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ فَيَا
 لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي
 ثَكَلْتُ سُرُورِي كُلَّهُ إِذْ ثَكَلَتْهُ
 وَأَصْبَحْتُ فِي لَذَاتِ عَيْشِي أَخَا زُهْدٍ^(٤)
 أَرِيحَانَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي

(١) المعدي : المعين .

(٢) النيب : ج ناب وهي الناقة المسنة .

(٣) الجزوع : الفاقد الصبر .

(٤) ثكلت : فقدت .

سَأَسْقِيكَ مَاءَ الْعَيْنِ مَا أَسْعَدَتْ بِهِ
 وَإِنْ كَانَتْ السُّقْيَا مِنَ الْعَيْنِ لَا تُجِدِي^(١)
 أَعَيْنِي جُودًا لِي فَقَدْ جُدْتُ لِلشَّرَى
 بِأَنْفَسٍ مِمَّا تَسْأَلَانِ مِنَ الرَّفْدِ^(٢)
 كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضُمَّةٍ
 وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدِ
 أَلَامٍ لِمَا أُبْدِي عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى
 وَإِنِّي لِأُخْفِي مِنْكَ أَضْعَافَ مَا أُبْدِي
 مُحَمَّدٌ، مَا شَيْءٌ تُؤْهِمُ سَلْوَةً
 لِقَلْبِي إِلَّا زَادَ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ
 أَرَى أَخَوَيْكَ الْبَاقِيَيْنِ كُلِّيهِمَا
 يَكُونَانِ لِلْأَحْزَانِ أَوْرَى مِنَ الزُّنْدِ^(٣)
 إِذَا لَعِبَا فِي مَلْعَبٍ لَكَ لَذْعَا
 فُؤَادِي بِمِثْلِ النَّارِ عَنْ غَيْرِ مَا قَصْدِ
 فَمَا فِيهِمَا لِي سَلْوَةٌ بَلْ حَرَارَةٌ
 يَهِيْجَانِهَا دُونِي وَأَشْقَى بِهَا وَحْدِي
 وَأَنْتَ وَإِنْ أَفْرَدْتَ فِي دَارٍ وَحْشَةً
 فَإِنِّي بِدَارِ الْأَنْسِ فِي وَحْشَةِ الْفَرْدِ
 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّي تَحِيَّةٌ وَمِنْ
 كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ

(١) أسعدت بالدمع : ساعدت .

(٢) الرفد : الجود والعطاء .

(٣) أورى : أكثر إيقاداً وإشعالاً . الزند : حديدة من فولاذ تضرب بحجر صوان فينقدح النار .

الشريف الرضي

هو أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م - ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م). ولد في بغداد من أصل شريف يرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. كان يطمح إلى الخلافة، ويُطمعه فيها الكاتب المشهور أبو إسحاق الصابيّ. تولّى إمارة الحجّ، وشهد مواسم العيد، وفيها النساء الوافدات من جميع البلدان. فحرّك المشهد أوتار قلبه، فنظم قصائد شهيرة في الغزل العفيف عُرفت بالحجازيات.

ومات الصابي سنة ٣٨٤ هـ وكان رئيس الكتاب في ديوان الخلافة العباسية، وأحد المشهود لهم بحسن الرأي وبلاغة الإنشاء. فرثاه الشريف الرضي بهذه القصيدة العامرة، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، نثت منها ما يلي :

أَعْلِمْتَ مَنْ حُمِلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ
أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي
جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي الْبَحْرِ آغْتَدَى
مِنْ وَقْعِهِ مُتَتَابِعَ الْإِزْبَادِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي الثُّرَى
أَنَّ الثُّرَى يَغْلُو عَلَى الْأَطْوَادِ

بَعْدًا لِيَوْمِكَ فِي الزَّمَانِ فَإِنَّهُ
 أَقْدَى الْعُيُونِ وَفَتْ فِي الْأَعْضَادِ^(١)
 لَا يَنْفَدُ الدَّمْعُ الَّذِي يُبْكِي بِهِ
 إِنَّ الْقُلُوبَ لَهُ مِنْ الْأُمْدَادِ
 أُعْزِرْ عَلِيَّ بِأَنْ يَفَارِقَ نَاضِرِي
 لَمَعَانُ ذَاكَ الْكَوْكَبِ الْوَقَادِ
 أُعْزِرْ عَلِيَّ بِأَنْ نَزَلَتْ بِمَنْزِلِ
 مُتَشَابِهِ الْأَمْجَادِ وَالْأَوْغَادِ^(٢)
 مَنْ لِلْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ إِنْ هَمَى
 ذَاكَ الْغَمَامُ وَعَبَّ ذَاكَ الْوَادِي^(٣)
 مَنْ لِلْمَمَالِكِ لَا يَزَالُ يَلْمُهَا
 بِسِدَادِ أَمْرِ ضَائِعٍ وَسِدَادِ
 إِنَّ الدَّمْعَ عَلَيْكَ غَيْرُ بَخِيلَةٍ
 وَالْقَلْبُ بِالسُّلُوفِ غَيْرُ جَوَادِ
 سَوَّدَتْ مَا بَيْنَ الْفَضَاءِ وَنَاضِرِي
 وَغَسَلَتْ مِنْ عَيْنِي كُلَّ سَوَادِ^(٤)
 مَاذَا الَّذِي حَبَسَ الْجَوَادَ عَنِ الْمَدَى
 مِنْ بَعْدِ سَبْقَتِهِ إِلَى الْأَمَادِ

(١) فت في عضده: أضعفه.

(٢) أي القبر الذي لا فرق فيه بين الأمجاد والأوغاد.

(٣) إذا سال غمام الفصاحة وطفى واديهها.

(٤) أي من كثرة البكاء.

ماذا الذي فَجَعَ الهمامَ بوَثْبَةٍ
 وعدا على دَمِهِ وكان العادي^(١)
 يا لَيْتَ أَنِّي ما اقْتَنَيْتُكَ صاحِباً
 كَمْ قَنِينَةٍ جَلَبَتْ أَسَى لِفُؤَادِي
 بَرْدُ القلوبِ بِمَنْ تُحِبُّ لِقَاءَهُ
 مِمَّا يَجْرُ حَرَارَةُ الْأَكْبَادِ^(٢)
 لا تَطْلُبِي يا نفسُ خلاً بَعْدَهُ
 فَلَمَثَلُهُ أَعْيَا عَلَى المَرْتَادِ
 إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أُسْرَتِي وَعَشِيرَتِي
 فَلَأَنْتَ أَعْلَقُهُمْ يَدَا بُودَادِي
 ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بَعْدَكَ كُلُّهَا
 وَتَرَكْتُ أَضِيقَهَا عَلَيَّ بِلَادِي
 لَكَ فِي الحِشَا قَبْرٌ وَإِنْ لَمْ تَأُوهِ
 وَمِنْ الدَّمْعِ رَوَائِحُ وَغَوَادِي
 ما ماتَ مَنْ جَعَلَ الزَّمانَ لِسَانَهُ
 يَتْلُو مَنَاقِبَ عَوْداً وَبِوَادِي^(٣)
 فَادْهَبْ كما ذَهَبَ الرِّيحُ وَإِثْرُهُ
 باقٍ بِكُلِّ خَمَائِلٍ وَنَجَادٍ

(١) ما هذا الذي وثب على الهمام وغلبه وقد كان أبداً هو الغالب.

(٢) غبطة القلب بالمحبيب هي سبب الألم والحزن عند فراقه.

(٣) ما مات من يعيد الزمان دائماً ذكرى مناقبه.

وسقاك فضلك إنه أروى حياً
من رائح متعرّس أو غاد^(١)
جذت - على أن لا نبات بأرضيه -
وقفت عليه مطالب الرواد

(١) فضلك أروى من السحاب الرائح والغادي .

أبو العلاء المعريّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م - ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرّ النعمان. أصيب بالجدريّ صغيراً، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. له ديوان شعريّ ضخم، وعدد كبير من المؤلفات. من أشهر قصائده تلك التي رثى بها صديقه الفقيه الشاعر أبو الخطاب محمد الجبليّ، قال فيها(*):

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مَلَّتِي وَاعْتَقَادِي
نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْنَمُ شَادٍ
وَشَبِيهُ صَوْتِ النَّعِيِّ إِذَا قِيسَ
بَصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادٍ
أَبَكَّتْ تِلْكَ الْحَمَامَةُ أُمَّ
غَنَّتْ عَلَى فَرْعٍ غَضِنَهَا الْمِيَادِ
صَاحِ هَذَا قُبُورُنَا تَمْتَلَأُ الرَّحْبَ
فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ
خَفَّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أُدِيمَ الـ
أَرْضَ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

(*) في القصيدة عدد من الأبيات المدوّرة.

وَقَبِيحُ بِنَا وَإِنْ قَدِمَ الْعَهْدُ
 هَوَانُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
 سِرٌّ إِنْ اسْطَغَتْ فِي الْهَوَاءِ رُويْدًا
 لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
 رَبُّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا
 ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ
 وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ
 فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْأَبَادِ
 فَاسْأَلِ الْفَرَقْدَيْنِ عَمَّنْ أَحْسَا
 مِنْ قَبِيلٍ وَأَنْسَا مِنْ بِلَادٍ^(١)
 كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ
 وَأَنَارَا لِمُذَلِّجٍ فِي سَوَادٍ
 تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أُعْجَبُ
 إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادٍ
 إِنَّ حُزْنَاً فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا
 فَ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
 خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ
 أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
 إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا
 لٍ إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

* * *

(١) اسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس.

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ أَسْعِدْنَ أَوْ
عِدْنَ قَلِيلَ الْعَزَاءِ بِالْإِسْعَادِ^(١)
إِيَّاهُ لِلَّهِ دَرَكُنَّ فَأَنْتُنَّ الْإِدْ
وَاتِي تَحْسِنُ حِفْظَ الْوَدَادِ
مَا نَسِيتُنَّ هَالِكًا فِي الْأَوَانِ الْخَالِ
أَوْدَى مِنْ قَبْلِ هُلُكِ إِيَادِ^(٢)
بَيْدَ أَنِّي لَا أُرْتَضِي مَا فَعَلَ
تُنَّ وَأَطَوَّقُكُنَّ فِي الْأَجْيَادِ
فَتَسْلَيْنَ وَاسْتَعْرَنَ جَمِيعًا
مِنْ قَمِيصِ الدُّجَى ثِيَابَ جِدَادِ
ثُمَّ غَرَّدْنَ فِي الْمَاتَمِ وَأَنْدَبْنَ
بِشَجْوٍ مَعَ الْغَوَانِي الْخِرَادِ

* * *

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أَبِي حَمْزَةَ الْأَوَا
بِ مَوْلَى حِجْجِي وَخَذَنَ اقْتِصَادِ^(٣)
أَنْفَقَ الْعُمَرَ نَاسِكًا يَطْلُبُ الْعِدْ
مَ بِكَشْفٍ عَنْ أَصْلِهِ وَانْتِقَادِ
ذَا بَنَانٍ لَا تَلْمَسُ الذُّهَبَ
الْأَحْمَرَ زُهْدًا فِي الْعَسْجَدِ الْمُسْتَفَادِ^(٤)

* * *

(١) بنات الهديل: الحمام. واسعدن أي ساعدن.

(٢) إشارة إلى أن الحمام لا تزال وفيه تبكي هديلها الذي هلك سابقاً.

(٣) أي إصابة الدهر وكان صاحب عقل وصلاح.

(٤) العسجد: الذهب.

وَدَّعَا أَيُّهَا الْخَفِيَّانِ ذَاكَ الشَّخْصَ
 إِنَّ السُّودَاعَ أَيْسَرُ زَادٍ
 وَاغْسِلَاهُ بِالذَّمْعِ إِنْ كَانَ طُهْرًا
 وَأَذْفِنَاهُ بَيْنَ الْحَشَى وَالْفُؤَادِ
 وَاحْبِسُوهُ الْأَكْفَسَانَ مِنْ وَرَقِ
 الْمُصْحَفِ كِبْرًا عَنْ أَنْفَسِ الْأَبْرَادِ
 وَاتْلُوا النِّعَشَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْتِّ
 سَبِيحِ لَا بِالنَّحِيبِ وَالتَّعْدَادِ
 أَسَفٌ غَيْرُ نَافِعٍ وَاجْتِهَادٌ
 لَا يُوْدِّي إِلَى غِنَاءِ اجْتِهَادِ
 طَالَمَا أَخْرَجَ الْحَزِينَ جَوَى
 الْحُزْنَ إِلَى غَيْرِ لَاقٍ بِالسَّدَادِ
 مَثَلَمَا فَاتَتْ الصَّلَاةُ سَلِيمَانَ
 فَأَنْحَى عَلَى رِقَابِ الْجِيَادِ
 وَهُوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
 بِمَا صَحَّ مِنْ شَهَادَةِ صَادٍ^(١)

كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مَحَلِّكَ بَعْدِي
 يَا جَدِيرًا مِنِّي بِحُسْنِ افْتِقَادِ
 قَدْ أَقْرَ الطَّبِيبُ عَنْكَ بِعَجْزِ
 وَتَقْضِي تَرْدُدُ الْعُودِ

(١) صَاد: سورة في القرآن . ويقصد بهذا البيت وما قبله أن الحزن قد يخرج الإنسان عن صوابه كما فعل النبي سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة «ص» إذ قيل ﴿فسخرنا له الريح﴾ الآية .

وَأَنْتَهَى الْيَأْسُ مِنْكَ وَاسْتَشْعَرَ الْوَجْدُ
 بِأَنَّ لَا مَعَادَ حَتَّى الْمَعَادِ^(١)
 هَجَدَ السَّاهِرُونَ حَوْلَكَ لِلْتَمِ
 — رِيضٍ وَيَحُ لَأَعْيُنِ الْهَجَادِ
 كُنْتُ خِلَّ الصُّبَا فَلَمَّا أَرَادَ
 الْبَيْنَ وَافَقْتُ رَأْيَهُ فِي الْمُرَادِ^(٢)
 وَرَأَيْتَ الْوَفَاءَ لِلصَّاحِبِ الْأَوْ
 لٍ مِنْ شِيْمَةِ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ
 وَخَلَعْتَ الشُّبَابَ غَضًّا فَيَا
 لَيْتَكَ أَبْلَيْتَهُ مَعَ الْأُنْدَادِ
 فَاذْهَبَا خَيْرَ ذَاهِبَيْنِ حَقِيقَةٍ
 بَيْنَ بَسْقِيَا رَوَائِحِ وَغَوَادِ
 وَمِرَاثٍ لَوْ أَنَّ هُنَّ دُمُوعُ
 لَمَحَوْنَ السُّطُورَ فِي الْإِنْشَادِ

* * *

زُحَلٌ أَشْرَفُ الْكَوَكِبِ دَاراً
 مِنْ لِقَاءِ الرَّدَى عَلَى مِيعَادِ
 وَلَنَارُ الْمَرِيخِ مِنْ حَدَثَانِ الدَّهْرِ
 مُطْفِئٌ وَإِنْ عَلَتْ فِي اتِّقَادِ
 وَالْثَرِيَّا رَهِينَةٌ بِافْتِرَاقِ الشُّمْلِ
 حَتَّى تُعَدَّ فِي الْإِفْرَادِ

(١) المعاد الثانية يوم القيامة.

(٢) الضمير في «أراد» يرجع إلى الصبا.

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَذْمِ مَا تَبَتَّنِي الْوَرَقَاءُ^(١)
وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعِمَادِ
وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفِيهِ ظِلُّ السُّدْرِ
ضَرْبَ الْأَطْنَابِ وَالْأَوْتَادِ^(٢)
بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ
فَدَاعَ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادِ
وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِّيُّ فِيهِ
حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ
وَاللَّبِيبُ اللَّيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتَرُّ
بِكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ

* * *

(١) الورقاء: الحمامة.

(٢) أي إن الإنسان راحل يغنيه ظلُّ السُّدْرِ (وهو شجر النبق) عن أن يبني المنازل، أي إنه قليل الإقامة في الدنيا فيجب أن لا يهتم بها.

المتنبي

هو شاعر عصره، بل شاعر العرب جميعاً على مرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٣٠٣ هـ / ٩١٥ م - ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م). قضى حياته متنقلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكن أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب. اشتهر بالشعر الحكمي، والمدح، والهجاء، والرثاء.

وفي رثائه يقف المتنبي من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيد موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسي، فرثاؤه «ليس رثاء التفجع والانهيار والضعف، ولا رثاء من يبكي ويذرف دموعاً، وإنما هو رثاء التشاؤم، والتألم، والتأمل، ورثاؤه لمن يحب هو رثاء الثورة النفسية، والانفجار التشاؤمي، والصرخات المدوية التي تهز الكيان، وتزعزع الإنسان».

رثاء أم سيف الدولة

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي

وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِهَا قِتَالٍ^(١)

(١) المشرفية: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت.

وَنَرْتَبِطُ السُّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ
 وَمَا يُنَجِّينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي^(١)
 وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا
 وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ
 نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ
 نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ
 رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى
 فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ
 فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْني سِهَامٌ
 تَكْسَرَتِ النُّصَالُ عَلَى النُّصَالِ^(٢)
 وَهَانَ، فَمَا أَبَالِي بِالرُّزَايَا
 لِأَنِّي مَا أَتَنَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي
 وَهَذَا أَوَّلُ النَّاعِيْنَ طُرًّا
 لِأَوَّلِ مَيْتَةٍ فِي ذَا الْجَلَالِ
 كَأَنَّ الْمَوْتَ لَمْ يَفْجَعْ بِنَفْسٍ
 وَلَمْ يَخْطُرْ لِمَخْلُوقٍ بِبَالٍ
 صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حُنُوطٌ
 عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفُنِ بِالْجَمَالِ^(٣)

(١) السُّوَابِقُ: كرام الخيل. المقربات: المدناة من البيوت، إمّا لفرط الحاجة إليها أو للضنُّ بها. الخبب: نوع من العدو. يقول: وارتبط الخيول الكريمة، ومع ذلك لا تنجيننا من سعي الليالي.

(٢) النصال: ج نصل، وهي الحديدة التي في رأسها السهم.

(٣) يدعو لها بأن تكون رحمة الله عليها كالحنوط للميت.

على المَدْفُونِ قَبْلَ التُّرْبِ صَوْنًا
 وَقَبْلَ اللَّحْدِ فِي كَرَمِ الْخِلَالِ^(١)
 فَإِنَّ لَهُ يَطْنِ الْأَرْضِ شَخْصًا
 جَدِيدًا ذَكَرْنَاهُ وَهُوَ بَالِي^(٢)
 وَمَا أَحَدٌ يُخَلِّدُ فِي الْبَرَائَا
 بَلِ الدُّنْيَا تَوُولُ إِلَى زَوَالِ
 أَطَابَ النَّفْسَ أَنْكَ مِتْ مَوْتًا
 تَمَنُّهُ الْبَوَاقِي وَالْخَوَالِي
 وَزُلَّتْ وَلَمْ تَرَيْ يَوْمًا كَرِيهًا
 تُسَرُّ الرُّوحُ فِيهِ بِالزُّوَالِ
 رَوَاقُ الْعِزِّ حَوْلَكَ مُسَبِّطٌ
 وَمُلْكٌ عَلَيَّ آئِينَكَ فِي كَمَالِ^(٣)
 سَقَى مَشَوَاكِ غَادٍ فِي الْغَوَادِي
 نَظِيرُ نَوَالٍ كَفُّكَ فِي النَّوَالِ
 أَسَائِلُ عَنْكَ بَعْدَكَ كُلُّ مَجْدٍ
 وَمَا عَهْدِي بِمَجْدٍ عَنْكَ خَالِي
 يَمُرُّ بِقَبْرِكَ الْعَافِي فَيَبْكِي
 وَيَشْغُلُهُ الْبُكَاءُ عَنِ السُّؤَالِ^(٤)

(١) يقول إنها كانت مدفونة بالصُّون وكرَّم الخلال قبل أن تُدفن في التراب واللحد.
 (٢) يقول: إنَّ شخصه وإن كان يبلى في القبر إلا أنَّ ذكرنا إياه سيبقى أبدًا.
 (٣) مسبطر: ممتد.
 (٤) العافي: طالب المعروف.

وما أَهْدَاكَ لِلْجَدْوَى عَلَيْهِ
لَوْ أَنَّكَ تَقْدِيرِينَ عَلَى فَعَالٍ
بِعَيْشِكَ هَلْ سَلَوْتَ فَإِنَّ قَلْبِي
وَإِنْ جَانَبْتُ أَرْضَكَ غَيْرُ سَالِي
نَزَلْتُ عَلَى الْكَرَاهَةِ فِي مَكَانٍ
بَعُدْتُ عَنِ النَّعَامَى وَالشُّمَالِ
حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ الْمُزْنِ فِيهِ
كُتُومُ السَّرِّ صَادِقَةُ الْمَقَالِ
وَلَيْسَتْ كَالْإِنَاثِ وَلَا اللَّوَاتِي
تُعَدُّ لَهَا الْقُبُورُ مِنَ الْحِجَالِ
وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تَجَارُ
يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضَ النَّعَالِ^(١)
مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً
كَأَنَّ الْمَرُوءَ مِنْ زِفِّ الرِّثَالِ^(٢)
وَأَبْرَزَتْ الْخُدُورُ مُخَبَّاتٍ
يَضَعْنَ النَّفْسَ أَمَكْنَةَ الْغَوَالِي^(٣)

(١) يقول في هذين البيتين: ليست كالنساء التي يُعَدُّ لها القبر سترًا، فهي مصونة مستورة ولم تكن من نساء السُّوقَة يتبع جنازتها تجار وباعة ينفضون النعال من التراب إذا انصرفوا عن القبر.

(٢) المرو: حجارة الصَّوَّان: زِفِّ: صفار الريش. الرِّثَال: ولد النعام.

(٣) النفس: هنا السواد. الغوالي: ج غالية وهي نوع من الطيب. يقول: خرجتْ لموتها نساء كُنَّ مُخَبَّاتٍ.

وَلَوْ كَانَ النَّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا
 لَفُضِّلَتِ النَّسَاءُ عَلَى الرَّجَالِ
 وَمَا التَّائِيْتُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
 وَلَا التَّذْكَيرُ فَخْرٌ لِلْهِلَالِ
 وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا
 قُبِيلَ الْفَقْدِ مَفْقُودَ الْمِثَالِ
 يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمْشِي
 أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
 وَكَمْ عَيْنٍ مُقْبِلَةً النُّوَاحِي
 كَجَيْلٍ بِالْجَنَادِلِ وَالرَّمَالِ^(١)
 وَمُغْضٍ كَانَ لَا يُغْضِي لِحَطْبٍ
 وَبَالٍ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْهَزَالِ
 أَسِيفَ الدَّوْلَةِ اسْتَنْجِدَ بِصَبْرِ
 وَكَيْفَ بِمِثْلِ صَبْرِكَ لِلْجِبَالِ
 فَأَنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ التَّعَزِّي
 وَخَوْضَ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السُّجَالِ
 وَحَالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى
 وَحَالَكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ
 فَلَا غِيْضَتْ بِحَارُكَ يَا جَمُومًا
 عَلَى عِلَلِ الْغَرَائِبِ وَالذُّخَالِ^(٢)

(١) الجنادل: ج جندلة وهي الحجارة. يقول: كم عين كانت عزيزة، فصارت تحت الأرض مكحولة بالرمل والحجارة.

(٢) غيضت: نقضت. الجموم: الكثير. علل: الشرب الثاني أو تباعاً. الغرائب: ج غريبة وهي التي ترد إلى الحوض. الدُّخَال: أن يدخل بعير قد شرب بين بعيرين لم يشربا. يقول: لا =

رَأَيْتُكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكاً
كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالٍ^(١)
فَإِنْ تَفَقَّيَ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ
فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ^(٢)

* * *

وقال يرثي أبا شجاع فاتكاً، وقد توفي بمصر سنة خمسين وثلاثمائة،
وكانت هذه المراثية بعد خروجه من مصر:

الْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ
وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِي طَيِّعُ^(٣)
يَتَنَازَعَانِ دُمُوعَ عَيْنِ مُسْهَدٍ
هَذَا يَجِيءُ بِهَا وَهَذَا يَرْجِعُ^(٤)
النُّومُ بَعْدَ أَبِي شُجَاعٍ نَافِرُ
وَاللَّيْلُ مُعْنِي وَالْكَوَائِبُ ظُلُعُ^(٥)

= نَقَضْتُ بَحَارُكَ يَا بَحْرًا كَثِيرَ الْمَاءِ وَإِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ الْإِبِلُ الْغَرِيبَةُ وَشَرِبَتْ مِنْهُ.

(١) يقول: أنت بين الملوك كالمستقيم بين المعوج.

(٢) يقول: إن فضلت الناس وأنت واحد منهم، فلا عجب، إذ قد يفضل بعض الشيء جملة،
كالمسك، وهو بعض دم الغزال، يفضل الغزال كله.

(٣) يقول: الحزن لأجل المصيبة يقلقني، والتجمل - تكلف الصبر - يمنعني عن التهالك
والجزع، والدمع بين الحالين عاص لدى التجمل فيحتبس مطيعاً للقلق فينسكب وبذلك
يعصى صاحبه تارة ويطيعه أخرى.

(٤) عني بالمسهد - أي الكثير السهاد، الممنوع عنه النوم - نفسه. يقول: الحزن والصبر
يتنازعان دموع عيني فالحزن يجيء بها - أو يجريها والتجمل يردّها.

(٥) يقول: النوم بعد أبي شجاع لا يألّف العين: أي لا تنام العيون بعده حزناً عليه، والليل يطول
فلا ينقضي، كأنه قد أعيا عن المشي - كل من التعب - فانقطع، والكواكب ظلع -
كالعرجى - لا تقدر أن تقطع الفلك فتغرب. يريد طول الليل لاستيلاء الحزن عليه والهم

إِنِّي لِأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتِي
وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ^(١)
وَيَزِيدُنِي غَضَبُ الْأَعَادِي قَسْوَةً
وَيُلِمُّ بِي عَتَبُ الصَّدِيقِ فَأُجْزَعُ^(٢)
تَصْفُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ^(٣)
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَطْمَعُ^(٤)

= على قلبه . وعبارة ابن جني : لو كان الليل والكواكب مما يؤثر فيهما حزن لأثر فيهما موته .
وقال الخطيب : إنما أراد أن الليل طويل لفقده فالليل معي والكواكب ظلع ما تسير . يريد
طول الليل للحزن .

(١) الحمام : الموت . يقول : أنا جبان عند فراق الأحبة أخافه خوف الجبناء وأشجع عند الموت
في ميدان الوغى فلا أهابه . يعني أن الفراق أعظم خطباً عنده من الموت كما قال أبو تمام :

جليد على عتب الخطوب إذا عرت
ولست على عتب الاخلاء بالجلد

(٢) يقول : إنه صعب على أعدائه لا يلين لهم ، بل يزداد عليهم قسوة إذا غضبوا ، ويجزع عند
عتب الصديق فلا يطيق احتماله ، كما قال أشجع السلمي :

يُعْطِي زَمَامَ الطَّوْعِ إِخْوَانَهُ
وَيَسْتَوِي بِالْمَلِكِ الْقَادِرِ

ويعد : فإن المتنبي يريد بهذين البيتين عطفه ورقة قلبه عند المودة والملاينة ، وشدته عند
المباينة والمقاومة .

(٣) قوله عما مضى : متعلق بغافل ، ويتوقع : ينتظر . يقول : إنما تصفو الحياة لجاهل لا يدرك
أحوالها ومصايرها ، أو غافل عما مضى فما من العبر وما ينتظر في العواقب من انقضائها أو
أحداثها التي لا يطيق لها احتمالاً ، أما العاقل الفطن الذي ينظر إلى الدنيا بعين المعرفة
ويتأملها تأمل الدراية ويمثل صوارفها وتصايرها فإنها لا تصفوله .

(٤) يسومها : يكلفها ، ويعني بالحقائق : ما لا شك فيه للعاقل ، وهو أن الدنيا على الحقيقة دار
غرور وأخطار ، والإنسان فيها على خطر عظيم ، وأن الحياة ، فانية فمن غالط في هذا نفسه =

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ
 مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرَعُ^(١)
 تَتَخَلَّفُ الْأَثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا
 حِينًا وَيُذَرِّكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتَّبِعُ^(٢)
 لَمْ يُرْضَ قَلْبَ أَبِي شُجَاعٍ مَبْلَغُ
 قَبْلِ الْمَمَاتِ وَلَمْ يَسْعُهُ مَوْضِعُ^(٣)
 كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً
 ذَهَبًا فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ^(٤)

-
- =ومناها السلامة والبقاء صفا له العيش حين ألقى عن نفسه الفكر في العواقب، وسام نفسه طلب المحال من البقاء في السلامة مع نيل المراد، فطمعت في ذلك.
- (١) الهرمان: هما الهرم الأكبر الأوسط - وهما معروفان. يقول أين من بناهما؟ وأين قومه؟ ومتى كان يوم موته؟ وكيف كان مصرعه؟ يعني أنهما بقيا بعد من بناهما واندرس ذكره وذكر قومه، فما يعرفون ولا يعرف بأي مية هلك، ولا في أي وقت لطول ممر الدهر عليه. يريد أن الدنيا مغنية لأهلها منكرا على من اغتر بها، وأن الفناء حتم في رقاب العباد، وأن الجميع صائرون إلى الفناء. وعبرة العكبري: قوله أين الذي الهرمان من بنيانه: استدل بينائهما على تمكنه، وأقامهما شاهدين على قوته وقدرته، أي أين هو وقوته؟ وأين قومه وكثرتهم؟ وأين عددهم وعددهم؟ أما عفت الدنيا آثار ملكه وأفتته؟ أما فرقت شمله وشتته؟ أما في بطن الأرض غيبته؟
- (٢) يقول: إن الآثار تبقى بعد أصحابها حيناً من الدهر تدل على تمكنهم وقوتهم وسطوتهم ثم ينالها ما نالهم من الفناء فتذهب كما ذهب أصحابها، وهذه شنشنة الدنيا مع أهلها، والمعهود من تصاريدها.
- (٣) يقول: إنه - لبعده مرتقى همته - لم يكن يرضى بمبلغ يبلغه في العلا حتى يطلب ما فوقه، ولم يكن ليسعه موضع من الأرض لأنه لا يشبع طموحه.
- (٤) البلقع: الخالي. يقول: كنا نظنه صاحب ذخائر من الأموال، فلما مات لم يخلف مالا لأنه كان جواداً معطاء.

وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا
وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ^(١)
الْمَجْدُ أَخْسَرُ وَالْمَكَارِمُ صَفْقَةٌ
مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْكَرِيمُ الْأَرُوعُ^(٢)
وَالنَّاسُ أَنْزَلُ فِي زَمَانِكَ مَنْزِلًا
مِنْ تُعَايِشَهُمْ وَقَدْرُكَ أَرْفَعُ^(٣)
بَرْدُ حَشَايَ إِنْ آسْتَطَعْتَ بِلَفْظَةٍ
فَلَقَدْ تَضُرُّ إِذَا تَشَاءُ وَتَنْفَعُ^(٤)

(١) يقول: وإنما كل ما كان يجمعه في حياته المكارم والأسلحة والخيول، أما الذهب فلا، لأنه كان يفرقه بالعطاء، بنات أعوج: يعني الخيل؟ وأعوج: فحل مشهور من خيل العرب، تنسب إليه الخيل الأعوجية، قيل سمي بذلك لأن غارة وقعت على أصحابه ليلاً وكان مهراً، ولضنهم به حملوه في وعاء على الإبل حين هربوا من الغارة، فاعوج ظهره وبقي فيه العوج، فلقب بالأعوج.

(٢) الأروع: الذكي الفؤاد. يقول: إن المجد والمكارم أخسر صفقة وأنقص حظاً من أن يعيش لها هذا المرثي، يعني أنها شقيت لذهاب من كان يحفظها ويجمع شملها وقال العكبري - عند إعراب قوله المجد أخسر والمكارم صفقة: إذا جعلت التقدير المجد والمكارم أخسر صفقة اختل، لأنك تفصل بالمكارم بين أخسر وبين صفقة، وهي منصوبة بأخسر - التي هي عطف على المجد - وهذا غير جائز، لأن صفقة تحل من أخسر محل الصلة من الموصول، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول زيد أحسن وعمرو وجهاً، ولكن لك أن تصرفه إلى وجه آخر، وهو أن تجعل المكارم عطفاً على الضمير في أخسر؟ فإن عطفته على الضمير الذي فيه لم يكن أجنياً منه، فلا يعد فصلاً بينه وبين صفقة، فيصير نحو قولك: مررت برجل أكل وعمرو خبزاً، بعطف عمرو على الضمير في أكل ونصب خبزاً بأكل.

(٣) يقول: إن الناس في زمانك أقلّ قدراً من أن تكون بينهم تخالطهم وتعاشروهم، وقدرك أجلّ من أن تعايش أهل هذا الزمان.

(٤) يقول: كلّمني كلمة وأسمعني منك لفظة إن قدرت عليها، ليسكن ما في قلبي من لوعة الحزن، فلقد كنت في حياتك تضر - إذا تشاء - أعداءك، وتنفع أولياءك، أو فانفعني بكلامك.

مَا كَانَ مِنْكَ إِلَى خَلِيلٍ قَبْلَهَا
 مَا يُسْتَرَابُ بِهِ وَلَا مَا يُوجِعُ^(١)
 وَلَقَدْ أَرَاكَ وَمَا تُلِمُ مُلِمَةً
 إِلَّا نَفَاها عَنْكَ قَلْبٌ أَصْمَعُ^(٢)
 وَيَدُّ كَأَنَّ قِتَالَهَا وَنَوَالَهَا
 فَرَضُ يَحِقُّ عَلَيْكَ وَهُوَ تَبَرُّعُ^(٣)
 يَا مَنْ يُبَدِّلُ كُلَّ يَوْمٍ حُلَّةً
 أَنِّي رَضِيتَ بِحُلَّةٍ لَا تُنَزَعُ^(٤)
 مَا زِلْتَ تَخْلَعُهَا عَلَى مَنْ شَاءَهَا
 حَتَّى لَبِستَ الْيَوْمَ مَا لَا تَخْلَعُ
 مَا زِلْتَ تَدْفَعُ كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ
 حَتَّى أَتَى الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ^(٥)

(١) يقال استراب به: أي رأى منه ما يريبه؟ أي يقلقه. يقول: لم يكن منك إلى أخلائك قبل هذه المرة: أي قبل أن تفجعهم بنفسك: ما يريبهم منك أو يوجعهم، فلما فقدت أوجعت قلوبهم وأبكيت عيونهم.

(٢) الأصمع: الذكي الحاد، وقوله وما تلم: حال. يقول: كنت أراك في حال حياتك وما تنزل بك نازلة من نوازل الدهر إلا دفعها عنك قلب ذكي.

(٣) يقول: ونفاها عنك يد شنشنتها إعطاء الأولياء وقتال الأعداء حتى لكأن النوال والقتال واجبان عليها، وهما تبرع ولا وجوب.

(٤) يريد: يا من كان في حياته يلبس كل يوم لباساً جديداً... إذا يخلع الملبوس على من يقصده - كيف ترضين أن تلبس الآن حلة لا تخلع؟ يعني الكفن - والحلة: اللباس من ثوبين - إزار ورداء - ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين.

(٥) الفادح: الذي يثقل حمله، وفي هذا المعنى يقول الحماسي:

دَفَعْنَا بِكَ الْإِيَّامَ حَيْثُ إِذَا أَثَتْ
 تُرِيدُكَ لَمْ نَسْطِيعْ لَهَا عَنْكَ مَدْفَعَا

فَظَلِلْتَ تَنْظُرُ لَا رِمَاحَكَ شُرْعُ
 فِيمَا عَرَكَ وَلَا سُيُوفَكَ قُطْعُ (١)
 بِأَبِي الْوَحِيدُ وَجَيْشُهُ مُتَكَاثِرُ
 يَبْكِي وَمِنْ شَرِّ السَّلَاحِ الْأَذْمُعُ (٢)
 وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ السَّلَاحِ عَلَى الْبُكَاءِ
 فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَخَدَّكَ تَقْرَعُ (٣)

-
- (١) عراك: أصابك ونزل بك، وشرع الرمح: بسط اليد به وسدده. يقول: ظللت - أقمت - تنظر إلى الموت نظر العاجز لم تعمل رماحك ولا سيوفك في دفع ما نزل بك، إذ لا مدفع للموت.
- (٢) بأبي: تفدية. وقوله وجيشه متكاثر: حال من ضمير الوحيد، ومتكاثر: خبر أول لجيشه، ويبكي: خبر ثان. يقول: إنه - مع كثرة جيوشه - كان وحيداً مع الأنصار، فلم يكن لجيوشه غناء فيما نزل به غير البكاء، ولا عدة غير الدموع، مع أن الدموع من شر الأسلحة، لأنها تضر صاحبها ولا تغني شيئاً عند المصيبة. وقد فسر هذا في البيت التالي.
- (٣) رعت: أفزعت وأخفت، وتقرع: تضرب. يقول: إذا لم يكن لك سلاح غير البكاء فلا غناء في الكباء، إنما تروع به القلب وتقرع به الخد. أي أنه لا يجدي ولا يدفع شيئاً.

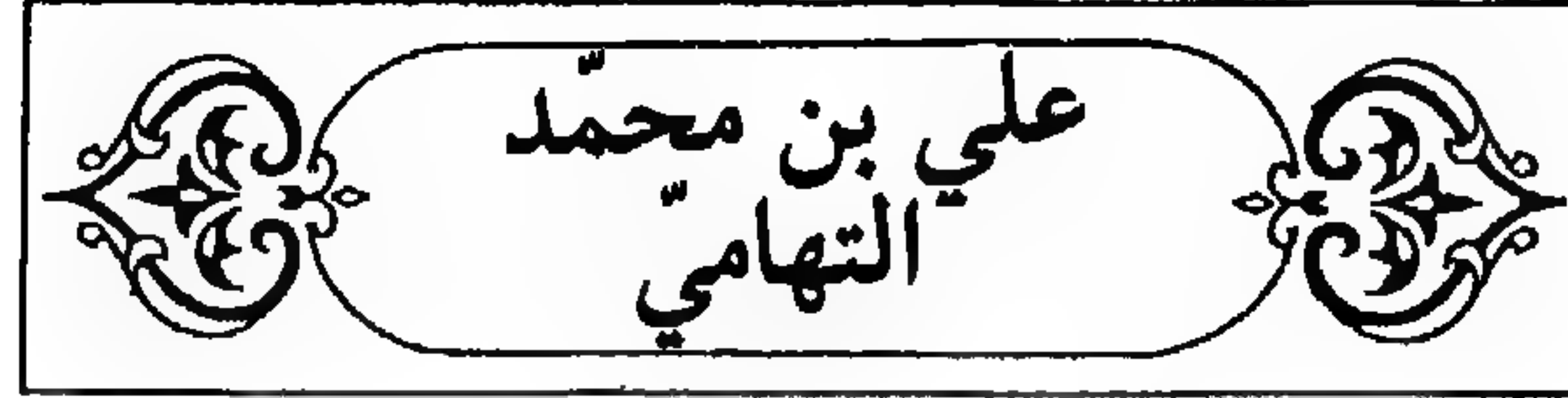
رثاء محمد بن بقيّة

عندما انتصر عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة، قتل محمد بن بقيّة وزير عزّ الدولة صلباً، فرثاه أبو الحسن الأنباري بهذه القصيدة التي لاقت شهرة واسعة حتّى إن عضد الدولة لما وقف عليها، قال: لقد تمنّيت أن أكون أنا المصلوب، وتكون هذه القصيدة فيّ.

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ
لَحَقُّ تِلْكَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا
وَقُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيباً
وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ أَحْتِفَاءً
كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِم بِالْهَبَاتِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ
يَضُمَّ عَلاكَ مِنْ بَعْدِ الْوَفَاةِ

أَصَارُوا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا
عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
لِعَظْمِكَ فِي النُّفُوسِ بَقِيَّتَ تَرْعَى
بِحُرَّاسٍ وَحُفَاطٍ ثِقَاتِ
وَتَوَقَّدُ حَوْلَكَ النُّيرانُ لَيْلًا
كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدُ
عَلَاهَا فِي السَّنِينَ الْمَاضِيَاتِ
وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ فِيهَا تَأْسُ
تُبَاعِدُ عَنْكَ تَغْيِيرَ الْعُدَاةِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جَذْعِكَ قَطُّ جَذْعًا
تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ
أَسَأَتْ إِلَى النُّوَائِبِ فَاسْتَشَارَتْ
فَأَنْتَ قَتِيلٌ ثَارَ النَّائِبَاتِ
وَكُنْتَ لِمَغْشَرٍ سَعْدًا فَلَمَّا
مَضَيْتَ تَفَرَّقُوا بِالْمُنْجَسَاتِ
غَلِيلٌ بَاطِنٌ لَكَ فِي فُؤَادِي
يُخَفِّفُ بِالذُّمُوعِ الْجَارِيَاتِ
وَلَوْ أَنِّي قَدِرْتُ عَلَى قِيَامِ
بِفَرَضِكَ وَالْحُقُوقِ الْوَاجِبَاتِ

مَلَأْتُ الْأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي
وَنُحْتُ بِهَا خِلَافَ النَّائِحَاتِ
وَلَكِنِّي أَصْبِرُ عَنْكَ نَقْصِي
مَخَافَةَ أَنْ أَعْدَّ مِنَ الْجُنَاةِ
وَمَا لَكَ تَرَبُّةً فَأَقُولَ تُسْقِي
لَأَنَّكَ نَضَبُ هَظْلِ الْهَاطِلَاتِ
عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَتْرَى
بِرَحْمَاتِ غَوَادِ رَائِحَاتِ



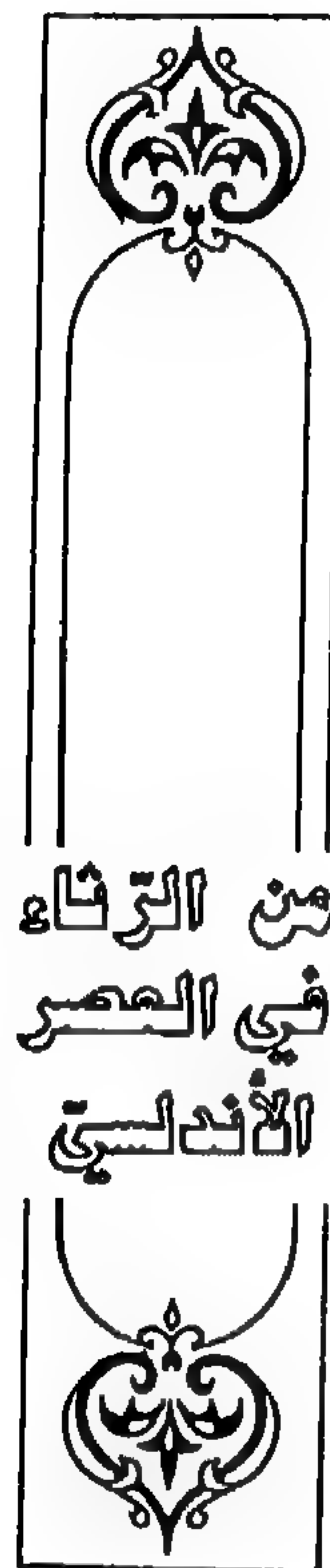
لأبي الحسن علي بن محمد التهامي . وهو شاعر لطيف النظم ، تُوفي قتلاً في سجن مصر سنة ٤١٦ هـ ، وكان قد وصل إليها في مهمة سياسية خفية . وهذه المراثاة في ولد له مات صغيراً ، وهي مشهورة بحسنها وروعيتها ، تجمع بين الحزن ، والحكم ، والفخر ، وتزيد أبياتها على الثمانين تقتصر منها على هذه النخبة :

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِ
 مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ
 يَا كَوَكَباً مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمرَهُ
 وَكَذَاكَ عُمرُ كَوَاكِبِ الْأَسْحَارِ
 وَهَلَالَ أَيَّامٍ مَضَى لَمْ يَسْتَدِرْ
 بَذْراً وَلَمْ يُنْهَلْ لَوَقْتِ سَرَارِ^(١)
 عَجَلَ الْخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ
 فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظْنَةِ الْإِبْدَارِ
 وَأَسْتُلُّ مِنْ أَثَرِهِ وَلِدَاتِهِ
 كَالْمُقْلَةِ اسْتُلَّتْ مِنَ الْأَشْفَارِ

(١) وقت السرار: آخر ليلة في الشهر.

فَكَأَنَّ قَلْبِي قَبْرُهُ وَكَأَنَّهُ
 فِي طَيْهِ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ
 أَبْكِيهِ ثُمَّ أَقُولُ مُعْتَذِرًا لَهُ
 وَفُقْتُ حِينَ تَرَكْتُ الْأُمَّ دَارِ
 جَاوَزْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَزَ رَبُّهُ
 شَتَّانَ بَيْنَ جَوَارِهِ وَجَوَارِي
 أُخْفِي مِنَ الْبُرَحَاءِ نَارًا مِثْلَ مَا
 يُخْفِي مِنَ النَّارِ الزَّنَادُ الْوَارِي
 وَأُخَفِّضُ الزُّفَرَاتِ وَهِيَ صَوَاعِدُ
 وَأَكْفِكُ الْعَبَرَاتِ وَهِيَ جَوَارِ
 وَشِهَابُ نَارِ الْحُزْنِ إِنْ طَاوَعْتُهُ
 أَوْرَى وَإِنْ عَاصَيْتُهُ مُتَوَارِي
 وَأَكْفُ نِيرَانَ الْأَسَى وَلَرُبُّمَا
 غُلِبَ التَّصَبُّرُ فَأَزْتَمَتْ بَشَرَارِ
 ثَوْبُ الرِّيَاءِ يَشْفُ عَمَّا تَحْتَهُ
 وَإِذَا التَّحَفُّتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِ
 قَصُرَتْ جَفَوْنِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا
 أَمْ صُوِّرَتْ عَيْنِي بِلا أَشْفَارِ
 أَحْيِي اللَّيَالِي التَّمُّ وَهِيَ تُمِيتُنِي
 وَتُمِيتُهُنَّ تَبْلُجُ الْأَسْحَارِ
 وَطَرِي مِنَ الدُّنْيَا الشُّبَابُ وَرَوْقُهُ
 فَإِذَا أَنْقَضَى فَقَدْ أَنْقَضَتْ أَوْطَارِي

قَصُرَتْ مَسَافَتُهُ وَمَا حَسَنَاتُهُ
عِنْدِي وَلَا آلاؤُهُ بِقِصَارِ
نَزْدَادٍ هَمًّا كُلَّمَا أَرْدَدْنَا غَنِيَّ
وَالْفَقْرُ كُلُّ الْفَقْرِ فِي الْإِكْثَارِ
مَا زَادَ فَوْقَ الزَادِ خُلْفَ ضَائِعاً
فِي حَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ أَوْ عَارِ
إِنِّي لَأَرْحَمُ حَاسِدِي لِحَرِّ مَا
ضَمِنْتَ صُدُورَهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ



أبو البقاء الرندي

هو صالح بن شريف الرندي، نسبة إلى رندة في جنوبي الأندلس.
شاعر أندلسي متأخر من أبناء القرن التاسع الهجري. اشتهر بقصيدته السائرة
في رثاء الأندلس.

رثاء الأندلس

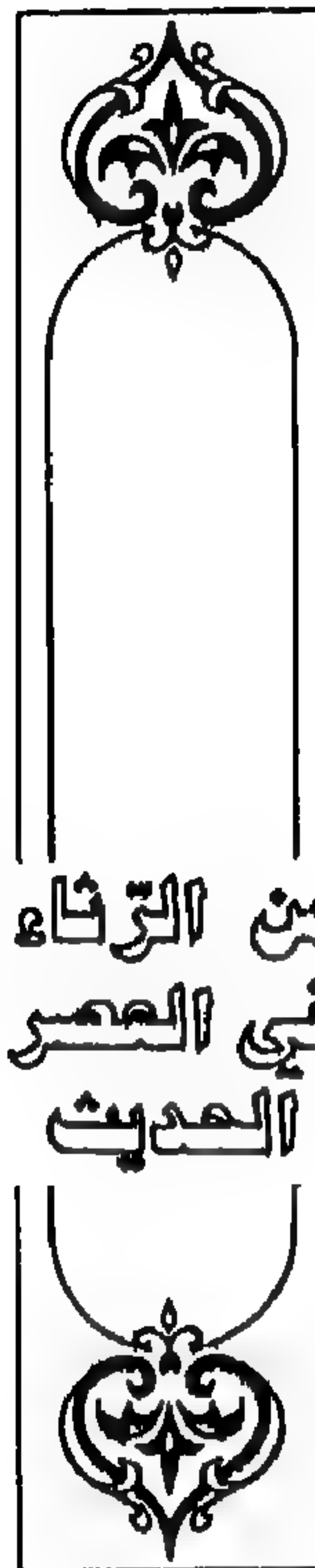
لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ
فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعِشْرِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنُ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
وَهَلِ فِي الدَّارِ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَبَرَدَ لَهُ
حَتَّى قَضَوْا، فَكَانَ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ
كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَشَانُ

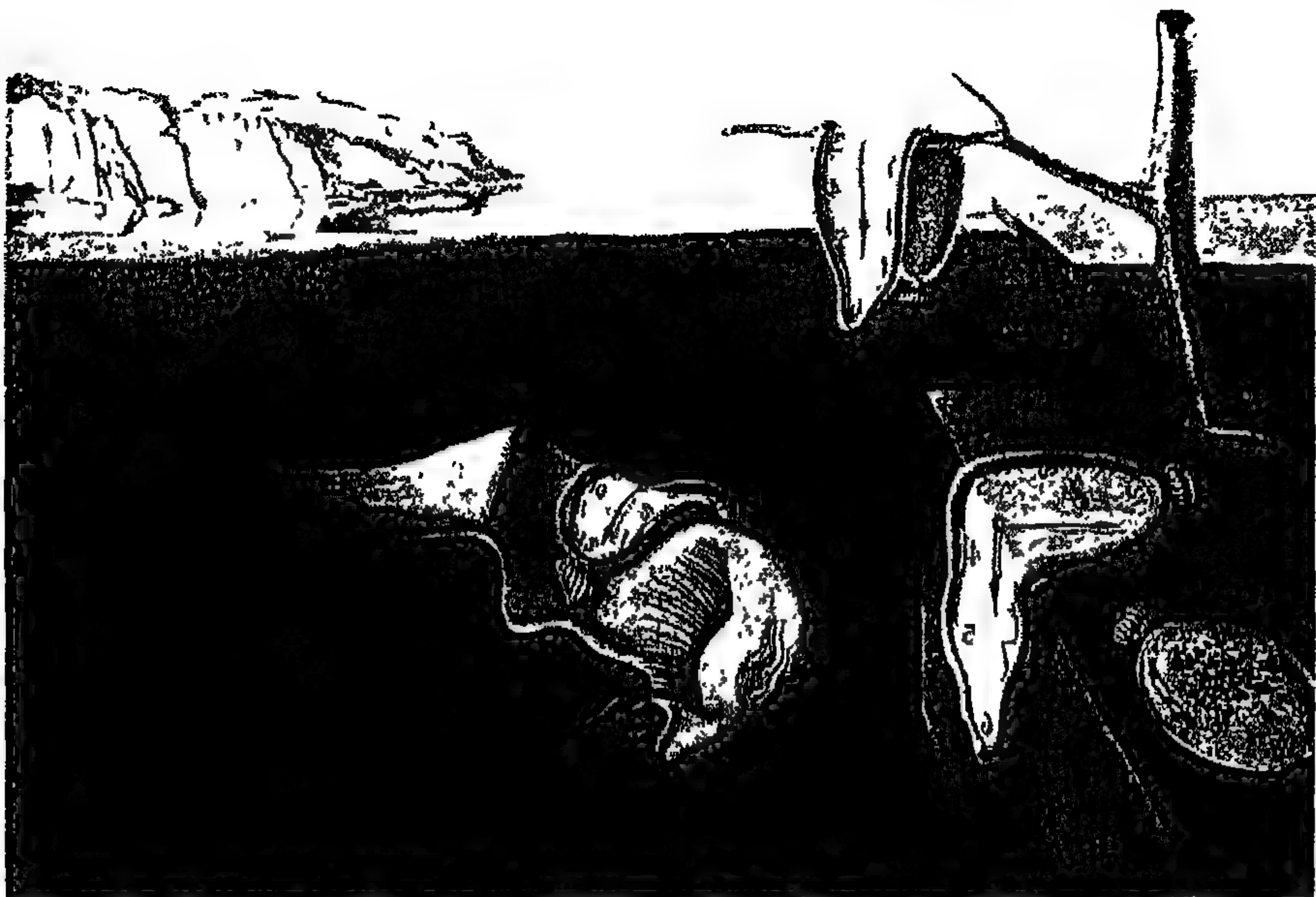
فجائع الدَّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ
 وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ
 وَلِلْحَوَادِثِ سَلَوَانٌ يُسَهِّلُهَا
 وَمَا لِمَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ سَلَوَانُ
 دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ
 هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَأَنَّهُدُ ثَهْلَانُ^(١)
 تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ
 كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ
 عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ
 قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكَفْرِ عِمْرَانُ
 يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ
 إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ فَالدَّهْرِ يَقْظَانُ^(٢)
 تِلْكَ الْمُصِيبَةُ أَنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا
 وَمَا لَهَا مِنْ طَوَالِ الدَّهْرِ نَسْيَانُ
 يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةٌ
 كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ
 وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةٌ
 كَأَنَّهَا فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
 وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دِعَاةٍ
 لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ

(١) أحد وثهلان : جيلان .

(٢) السَّنة : الغفلة .

أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أُنْدُلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ
كَمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الْمُسْتَضْعِفُونَ وَهُمْ
قَتَلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَرُ إِنْسَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ
أَلَا نُفُوسٌ أُبَيِّاتٌ لَهَا هِمَمٌ
أَمَا عَلَى الْخَيْرِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ
يَا مَنْ لِدَلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ
أَحَالَ حَالَهُمْ جَوْرٌ وَطُغْيَانُ
بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ
وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ
وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاهُمُ عِنْدَ بَيْعِهِمْ
لَهَالِكَ الْأَمْرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ
إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ





سلفادور دالي - إلتحاح الذاكرة - ١٩٣١

هذه اللوحة لسلفادور دالي، وفيها يتشاءب الوقت، وتسيل الساعات وتمتد على بقليا شبه إنسانية وغصون يابسة مكعبات: أو يحتاج النمل الأسود الأكل، ساعة مقفلة على الوقت.

بينما يبدو الأفق الشاحب الغرائبي، وكأنه عالم آخر أبدي لا ينتمي إلى الوقت الإنساني، في تناقض مع القلق والسأم والتشويه والهلاك، وكلها مترافقة مع مرور الوقت في ذاكرة الإنسان الحاجة.

الياس أبو شبكة

أديب لبنانيّ (١٩٠٣ - ١٩٤٧ م) ولد في نيويورك، وعاش في لبنان. عشق الطبيعة، ووقف إلى جانب الإنسان كان من البناة المجدّدين، وأروع ما عنده المزج البديع بين الإنسان والطبيعة. له آثار شعرية ونثرية، منها «أفاعي الفردوس»، و«غلواء»، و«الرسوم».

من أشهر قصائده في الرثاء قصيدته «الحجر الحيّ» تلك التي قالها في فوزي المعلوف الذي توفي في البرازيل، وأقيم له تمثال نصفي أثبت فوق نصب تذكاري في ساحة بلدية زحلة (لبنان) مدينته الأم.

ومن هذه القصيدة:

أَطْبِقْ جَنَاحَيْكَ مَعْقُوداً لَكَ الظُّفَرُ
فَقَدْ وَصَلْتَ وَشَوَّطُ^(١) المَجْدِ مُخْتَصِرُ
مَا ضَرَّ وَكَرَّكَ أَنْ تَأْتِيَهُ مُنْطَفِئاً
مَا دَامَ قَلْبُكَ فِي جَنْبَيْهِ يَسْتَعِرُ^(٢)
أَتَيْتَهُ فِي النُّحَاسِ الْحَيِّ طَيِّبَةً
عَلَيْهِ مِنْ رَوْحِكَ الْأَغْرَاقُ وَالسُّرَرُ

(١) الشوط: المرحلة.

(٢) يستعر: يشتعل.

عَيْنَاكَ فِي الْحَجَرِ الْمَصْبُوبِ سَاهِرَةً
يَقْظَانَةُ فِيهِمَا أَحْلَامُكَ الْغُرُرُ^(١)

* * *

نِيرَانُ عَبَقَرٍ فِي عَيْنَيْكَ إِنْ مَرَدَّتْ^(٢)
هُجُجُ الدُّجَى فَعَلَى عَيْنَيْكَ تَنْصَهَرُ
مَهْمَا طَغَى اللَّيْلُ لَا تُشْقِيكَ زَوْبَعَةٌ
وَلَا تَجْهُّمَ فِي أَجْفَانِكَ الْحَوَرُ

* * *

يَقْظَانُ وَالنَّاسُ غُمِي فِي مَرَاقِدِهِمْ
سَيَّانَ نَامُوا عَلَى ذَلِكَ أَمْ احْتَضِرُوا
عَارٌ عَلَيْنَا نَنَامُ اللَّيْلَ هَانِئَةً
عُيُونُنَا وَعِيسَابُ اللَّيْلِ مُغْتَكِرُ
وَتَشْهَدُ الصُّبْحُ عُرْسَ الصُّبْحِ مُنْعَقِدًا
عَلَى جَبِينِكَ نَوْرٌ مِنْهُ يَنْضَفِرُ
وَلَائِمٌ لَكَ تُزْجِي مِنْ مَوَائِدِهَا
الْعَطَرُ وَالنُّورُ وَالْأَلْحَانُ وَالصُّوَرُ

* * *

تَشْدُ جَفْنَيْكَ رُؤْيَا لَا قَرَارَ لَهَا
كَأَنَّمَا الْغَيْبُ فِي عَيْنَيْكَ مُنْخَصِرُ

(١) الغرر: البهية.

(٢) مردت: عصت.

عَيْنُ الْعَظِيمِ ضِيَاءُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا
 مَرُّ الْجَحِيمِ وَلَمْ يَطْرَفْ لَهَا بَصَرُ
 مُنْذُ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْأَكْفَانُ هَاوِيَةٌ
 عَنِ النَّبُوغِ وَصَخْرُ الْقَبْرِ مُنْحَدِرُ
 كَمَ فِي بِلَادِكَ مِنْ نَفْسٍ تَوَدُّ عَلَى
 وَقَاحِ عَوْرَتِهَا أَنْ تُسَدَلَ السُّتُرُ

* * *

أَبَا النُّسُورِ، سَقَيْتَ الْمَوْتَ خُمُرَتَهُ /
 فَصَلْبُكَ الْمُصْطَفَى لِلْخُلْدِ مُدْخَرُ
 مَا ضَرَّ نَشْرَكَ لَمْ يَعْقِبْ وَقَدْ نَسَلَتْ
 مِنْهُ النُّجُومُ، فَفُوزِي وَحْدَهُ أَسْرُ
 وَرُبُّ حَيٍّ غَدَا فِي قَوْمِهِ حَجْرًا
 وَرُبُّ مَيِّتٍ غَدَا حَيًّا بِهِ الْحَجَرُ

مصطفى المنفلوطي

أديب مصريّ (١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م - ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م) نابغة في الإنشاء والأدب. انفرد بأسلوب نقيّ في مقالاته وكتبه. وله شعر جيد فيه رقّة وعذوبة. من مؤلفاته «النظرات»، و«في سبيل التاج»، و«العبرات»، و«مجدولين».

ومن رثائه نثب قوله في رثائه ابنه.

١ - الآن نَفَضْتُ يَدَيَّ من تُرابِ قَبْرِكَ يا بُنَيَّ، وَعُدْتُ إلى مَنْزِلِي، كما يعودُ القائدُ المُنْكَسِرُ من ساحةِ الحربِ، لا أملكُ إلا دَمْعَةً، لا أَسْتَطِيعُ إرسالَها، وزَفْرَةً لا أَسْتَطِيعُ تَصْعِيدَها؛ ذلكَ لأنَّ اللَّهَ الَّذِي كَتَبَ لي في لوحِ مَقادِيرِهِ^(١) هذا الشُّقَاءَ في أَمْرِكَ، فَرَزَقَنِي بِكَ قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَهُ إِيَّاكَ، ثُمَّ أَخْتَطِفُكَ قَبْلَ أَنْ أَسْتَغْفِيَهُ^(٢) مِنْكَ، قد أَرَادَ أَنْ يُتِمَّمَ قَضَاءَهُ فِيَّ، وَأَنْ يُجْرِعَنِي الكَأْسَ حَتَّى تُمَالِتِها^(٣)، فَلَهُ الحَمْدُ راضِياً وغازِباً، وله الشُّنَاءُ مُنِعِماً وسالِياً، وَلَهُ مِنِّي

(١) لوح المقادير: إيمان ديني بأن الله يضع لكلّ إنسان حين يُولد لوحاً يكتب عليه سيرة حياته الدنيا والمصائب التي تنزل به.

(٢) استغفيه: أطلب منه العفو عن تكليفه.

(٣) الثمالة: البقية الباقية في الكأس.

ما يَشَاءُ مِنَ الرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالصَّبْرَ عَلَى بَلَائِهِ.

٢ - رَأَيْتَكَ يَا بَنِيَّ فِي فِرَاشِكَ عَلِيلاً فَجَزَعْتُ^(١)، ثُمَّ خِفْتُ عَلَيْكَ الْمَوْتَ فَفَزَعْتُ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يُخِيلُ إِلَيَّ أَنَّ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ شَأْنٌ مِنْ شُؤُونِ النَّاسِ، وَعَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَمْلِكُهَا أَيْدِيهِمْ، وَأَسْتَشِرْتُ الطَّبِيبَ فِي أَمْرِكَ، فَكَتَبَ لِي الدَّوَاءَ، وَوَعَدَنِي بِالشُّفَاءِ، فَجَلَسْتُ بِجَانِبِكَ أَصْبُ فِي فَمِكَ ذَلِكَ السَّائِلَ الْأَصْفَرَ قَطْرَةً قَطْرَةً، وَالْقَدْرُ يَنْتَزِعُ مِنْ جَنْبِكَ الْحَيَاةَ قِطْعَةً قِطْعَةً، حَتَّى نَظَرْتُ، فَإِذَا أَنْتَ بَيْنَ يَدَيَّ جُثَّةٌ بَارِدَةٌ لَا حَرَكَةَ بِهَا، وَإِذَا قَارُورَةُ الدَّوَاءِ مَا تَزَالُ فِي يَدِي فَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ثَكَلْتُكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ الْقَضَاءِ لَا أَمْرُ الدَّوَاءِ! لَقَدْ كَانَ خَيْرًا لِي وَلَكَ يَا بَنِيَّ أَنْ أَكِلَ^(٢) إِلَى اللَّهِ أَمْرَكَ فِي شِفَائِكَ وَمَرْضِيكَ، وَحَيَاتِكَ، وَمَوْتِكَ...

٣ - مَا أَسْمَجَ^(٣) وَجْهَ الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِكَ يَا بَنِيَّ! وَمَا أَقْبَحَ صُورَةَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ فِي نَظْرِي! وَمَا أَشَدُّ ظُلْمَةَ الْبَيْتِ الَّذِي أَسْكَنُهُ بَعْدَ فِرَاقِكَ إِلَيَّ! فَلَقَدْ كُنْتُ تَطْلُعُ فِي أَرْجَائِهِ شَمْسًا مُشْرِقَةً تُضِيءُ لِي كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَلَا تَرَى عَيْنِي مِمَّا حَوْلِي، أَكْثَرَ مِمَّا تَرَى عَيْنُكَ الْآنَ فِي ظُلُمَاتِ قَبْرِكَ. بَكَى الْبَاكُونَ وَالْبَاكِيَاتُ عَلَيْكَ مَا شَاءُوا، وَتَفَجَّعُوا، حَتَّى إِذَا ضَعُفَتْ قَوَاهِمُ عَنْ أَحْتِمَالِ أَكْثَرِ مِمَّا أَحْتَمَلُوا، لَجَأُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، فَسَكَنُوا إِلَيْهَا، وَلَمْ يَبْقَ سَاهِرًا، فِي ظُلْمَةِ هَذَا اللَّيْلِ، وَسُكُونِهِ، غَيْرُ عَيْنَيْنِ قَرِيحَتَيْنِ^(٤): عَيْنِ أَبِيكَ

(١) جزعت: خفت.

(٢) أكل: أسلم إلى الله.

(٣) ما أسمع: ما أقبح.

(٤) قريحتين: جريحتين.

الثاكيل المسكين، وعين أخرى أنت تعلمها...

٤ - دفنتك اليوم يا بني، ودفنت أخاك من قبلك، ودفنت من قبلكما أخويكما، فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تُلَاقِي القلوب، وأحتمل فوق ما تَحْتَمِلُ من فواحِ الخطوب! . لماذا ذهبتم يا بني بعدما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تُقيمون؟...

صلاح لبكي

أديب لبناني ، كان شاعراً وناثراً ورجل صحافة وبلاغة .
 وُلد في البرازيل سنة ١٩٠٦ ، ثم انتقل ، طفلاً ، مع أبيه ، إلى لبنان ،
 حيث حصل قسطاً وافراً من المعارف .
 «عاش حياته كلها - كاتباً ، شاعراً ، صحفياً ، ومحامياً على الذروة» .
 هو شاعر مُبدع ، أحبّ الجمال ، وعبر عنه في شعر أضفى عليه جمالية
 الألفاظ ، وجمالية المعاني ، وجمالية السياق .
 هو شاعر إنساني مثاليّ ، نبضت العاطفة الإنسانية في كل لفظة من
 الفاظه ، وفي كل لفظة من لفظاته . توفي سنة ١٩٥٥ .
 من آثاره : «مواعيد» و «أرجوحة القمر» و «من أعماق الجبل» .
 مناسبة القصيدة : عندما توفي الشيخ إبراهيم اليازجي رثاه خليل مطران
 بقصيدة رائعة مطلعها :

رَبُّ الْبَيَانِ وَسَيِّدُ الْقَلَمِ
 وَفُيْتُ قَسْطَكَ لِلْعَلَى قَنَمِ

وعندما تُوفي شاعر الأقطار العربيّة خليل مطران رثاه شعراء كثيرون ،
 وحدث أن أقامت الكليّة الشرقيّة بزحلة مهرجاناً لذكرى وفاته ، فأنشد الشاعر

الكبير صلاح لبكي القصيدة التالية راثياً ومعارضاً قصيدة للمتنبّي في رثاء
والدة سيف الدولة أمير حلب.

رَمْتُكَ بِمَا تُعِدُّ لَنَا اللَّيَالِي،
فَهَذَا الشُّجُو^(١) مِنْ ذَاكَ الْوِصَالِ^(٢)
وَمَا نَبُكِيكَ مَيْتاً، كُلُّ بَاقٍ
تَمَنَّى أَنْ يَكُونَكَ فِي الْمَالِ^(٣)
وَقَدْ كُنْتَ الضُّيَاءَ عَلَى زَوَالٍ،
فَأُمْسَيْتَ الضُّيَاءَ بِلا زَوَالٍ
مُعَلِّمَ كُلِّ أُغْنِيَةٍ حَنِيناً
وَهَذِي الْوِرْدِ فِي سُبُلِ الْغَوَالِي^(٤)
لِمَنْ نُضْغِي إِذَا اشْتَبَهَتْ ظُنُونُ^(٥)
وَقَدْ سَكَتَ ابْنُ نَاصِيَةِ الْمَقَالِ^(٦)
أَتَيْتَ الشُّعْرَ وَهُوَ عَلَى هُزَالٍ
بِأَوْطَانٍ سَبَقُنَ إِلَى أَنْجِلَالٍ
فَرُخْتَ تَصْوَغُ اشْتَاتِ الْمَعَانِي
وَيَعْصِمُكَ الطُّمُوحُ مِنَ الضُّلَالِ

(١) الشجو: الهم والحزن.

(٢) الوصال: ضد الهجر.

(٣) المال: المصير، يقول: كل باق تمنى أن يكون ميتاً فادياً إياك بحياته.

(٤) سبل الغوالي: الطرق التي تؤدي إلى فرائد الأفكار.

(٥) إذا اشتبهت ظنون: أي إذا لم تظهر الحقيقة، ووقعنا في ظنون مختلفة.

(٦) ابن ناصية المقال: أي كما قال خليل مطران «رب البيان وسيد القلم».

وَتَبْنِي، فَالْقَصِيدَةُ بَعْلَبِكَ،
وَكَاثَتْ قَبْلُ أَبْيَاتِ الْجِبَالِ
لَقَدْ جَاوَزْتَ أَبْكَارَ الْأَوَاتِي^(١)
عَلَى مَهْلٍ، وَإِبْدَاعِ الْأَوَالِي^(٢)
فَلَمْ يُعْجِزْكَ صَعْبٌ فِي مَجَالٍ،
وَلَا أَغْوَاكَ سَهْلٌ فِي مَجَالٍ
كَأَنَّ الْحُسْنَ أَسْلَمَ كُلَّ سِرٍّ
إِلَيْكَ، فَصِرْتَ مَوْضُوعَ السُّؤَالِ
نَعَى لُبْنَانُ، يَوْمَ نُعَيْتَ، عَقْلًا
تَرْسُلَ^(٣) لِحَقِيقَةِ وَالْجَمَالِ
نَعَى الْقَلْبَ الَّذِي غَمَرَ الْبَرَايَا
حَنَانًا غَيْرَ مُنْقَطِعِ النُّوَالِ^(٤)
نَعَى الْخُلُقَ الْحَصَانَ^(٥)، نَعَى السَّجَابَا
نَعَى الْعَذَبَ الْمَنَاقِبِ وَالْخِلَالَ^(٦)
نَعَى الْأَوْفَى مَوَائِقًا وَعَهْدًا،
وَلَوْ كَرَّ الزَّمَانُ بِغَيْرِ حَالٍ

(١) جاوزت أبكار الأواتي : أي أنك سبقت الآتين بعدك إلى المبتكرات.

(٢) الأوالي : أي الذين سبقوك ولا سيما الأقدمين منهم.

(٣) ترسل : أي مال ميلاً شديداً.

(٤) النوال : العطاء.

(٥) الخلق الحصان : أي المصون :

(٦) الخلايا والسجايا والمناقب : الصفات الخلقية الكريمة.

نَعَى الْأَدَابَ، عِلْماً وَآحْتِشَاماً،
وَذَاكَ الصُّوْغُ فِي ذَاكَ الْجَلَالِ
أَخَا أَلْهِمَّ الْكِبَارِ، سَطَعَتْ فِينَا
أَباً لِّلْعَبَقَرِيَّاتِ الصُّقَالِ
لِئِنْ تَكُنِ أَلْمَنِئَةُ جُلُّ فَضْلٍ
فَقَدْ وَفَّيْتَ قِسْطَكَ لِّلْمَعَالِي
وَحُقُّ لَكَ الرُّقَادُ، وَأَنْتَ طِفْلٌ
تَخْطِي السَّابِقِينَ إِلَى الْكَمَالِ

الأخطل الصغير

هو بشارة بن عبد الله الخوري (١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. مولده ووفاته في بيروت. أنشأ جريدة «البرق»، وعمل في الصحافة طول حياته. له ديوانان شعريان، هما الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير». من أهم قصائده في الرثاء تلك التي قالها في رثاء سعد زغلول التالية، وسنثبث بعدها القصيدة الشهيرة التي قالها في الاحتفال الذي أقيم في حلب تكريماً لشاعرها الخالد أبي الطيّب المتنبي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته.

قالوا: دَهَتْ مِصْرَ دَهْيَاءُ، فَقُلْتُ لَهُمْ:
هَلْ غُيِّضَ النِّيلُ أَمْ هَلْ زُلْزِلَ الْهَرَمُ؟
قالوا: أَشَدُّ وَأَدْهَى. قُلْتُ: وَيَحْكُمُ
إِذَا، لَقَدْ مَاتَ سَعْدُ، وَأَنْطَوَى الْعَلَمُ!

* * *

لِمَ لَا تَقُولُونَ: إِنَّ الْعُرْبَ قَاطِبَةٌ
تَيَّمُوا، كَانَ زُغْلُولُ أَبَا لَهُمْ؟
لِمَ لَا تَقُولُونَ: إِنَّ الْعُرْبَ مُضْطَرِبٌ
لِمَ لَا تَقُولُونَ: إِنَّ الشَّرْقَ مُضْطَرِمٌ؟

عَذَرْتُكُمْ، كَانَ مِلءَ الْكَوْنِ صَاحِبُكُمْ
فَكَيْفَ تَمْلَأُ أُذُنَ السَّامِعِ الْكَلِمُ؟
لَلصَّنْتِ أَبْلَغُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَجِقُ
وَالدَّمَعُ أَفْعَلُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَجِمُ

* * *

جَاءَ النَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِ، فَمَا لِأُمُومَا
وَجَاءَ سَعْدُ، فَشَمَلُ الشَّرْقِ مُلْتِمُ
الْقَائِلُ الْحَقُّ لَا تُشْنَى أَعْنَتُهُ
وَالوَاحِدُ الْفَرْدُ فِي أَثْوَابِهِ أُمَمُ
لُطْفُ الْمَسِيحِ مُذَابٌ فِي مَحَاجِرِهِ
وَعَزْمُ أَحْمَدَ فِي جَنْبِيهِ يَخْتَدِمُ
صَلَّى عَلَيْهِ النَّصَارَى فِي كَنَائِسِهِمْ
وَالْمُسْلِمُونَ سَعَوْا لِلْقَبْرِ، وَاسْتَلَمُوا

* * *

الْمُؤْمِنُونَ بِسَعْدٍ، أَيْنَ أُبْصِرُهُمْ
وَالْمُعْجَبُونَ بِسَعْدٍ، أَيْنَ أَيْنَ هُمْ؟
أَفْرِي الطِّيَالِسَ عَنْهُمْ لَا أَشَاهِدُهُمْ
أَبْرِي الْقَلَائِسَ عَنْهُمْ لَا أَجِثُهُمْ
وَأَسْأَلُ الْحَفْلَ عَنْهُمْ لَا يُجَاوِبُنِي
كَأَنَّمَا الْحَفْلُ فِي آذَانِهِ صَمَمُ

* * *

بَلَى شَهِدَتْهُمْ وَالنَّقْعُ مُعْتَكِرٌ
وَالْحَقُّ مُطْلَبٌ وَالشُّعْرُ مُبْتَسِمٌ
وَرَايَةُ الْوَطَنِ الْغَالِي تُظِلُّهُمْ
كَأَنَّهَا خَضَنْتْ أَفْرَاحَهَا الرَّخْمُ (١)
رُوحٌ تَسِيلُ عَلَى الْقِرْطَاسِ إِنْ خَطَبُوا
وَقَدْ تَسِيلُ عَلَى الْقِرْضَابِ إِنْ قَحَمُوا (٢)
مِصْرٌ وَلَيْسَ سِوَى مِصْرٍ لَهُمْ أَرْبٌ
إِنْ تَشَقَّ يَشْقُوا وَإِنْ تَنْعَمَ فَقَدْ نَعِمُوا

* * *

رَجَالَ مِصْرٍ شَفِيعِي إِنْ عَتَبْتُكُمْ
أَنْ الْمُحِبُّ لَدَيْكُمْ لَيْسَ يُتْهَمُ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِي تَحْزِينِكُمْ
أَنْ تَنْصُرُوا الْخَصْمَ وَهُوَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ
تَخَاصِمُونَ عَلَى ضَعْفٍ، وَخَصْمُكُمْ
وَهُوَ الْقَوِيُّ، عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَخْتَصِمُ
تَوَحَّدُوا بِاسْمِ مِصْرٍ فِي تَجْهَمِهَا
وَطَالَعُوا ثَغْرَ مِصْرٍ كَيْفَ يَبْتَسِمُ
سَعْدٌ أَرَادَكُمْ حِلْفًا - فَلَا قُسِمَتْ
أَجْزَاؤُكُمْ - حُبٌ مِصْرٍ لَيْسَ يَنْقَسِمُ

(١) الرَّخْمُ: طائر من الجوارح يشبه النسر.

(٢) الْقِرْضَابُ: السيف الباتر. قحمو: قطعوا.

سَـيـَـرُوا - لِكُلِّ أَخِي دُنْيَا لُبَانْتُهُ (١)
 حَتَّىٰ أَذَا مَا رَبِحْتُمْ مِصْرَ، فَاقْتَسِمُوا
 تَارِيخُ مِصْرٍ وَلَوْ، مَا انْتَمَى شَمَمُ
 إِلَّا إِلَيْهِ، وَحَابِي نَفْسَهُ الشَّمَمُ
 أُمُّ الْحَضَارَةِ، بَلْ مَجَلَىٰ أَشِعَّتِهَا
 يَوْمَ الْحَضَارَةِ لَمْ تَعْلُقْ بِهَا رَجْمُ
 تَقَهَّقَرَتْ دُونَهَا الْأَيَّامُ وَاجْفَاءُ
 فَهِيَ الشَّبَابُ، وَتِلْكَ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ

* * *

مَنْ مَبْلِغُ مِصْرَ عَنَّا مَا نُكَابِدُهُ
 إِنَّ الْعُرُوبَةَ فِيمَا بَيْنَنَا ذِمَمُ
 رُكْنَانِ لِلضَّادِ، لَمْ تُفْطَمْ عُرَىٰ لَهُمَا
 هُمْ نَحْنُ إِنَّ رُزِثَتْ يَوْمًا وَنَحْنُ هُمْ

* * *

وقال بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي :

نَفَيْتَ عَنْكَ الْعُلَى وَالظُّرْفَ وَالْأَدْبَا
 وَإِنْ خُلِقْتَ لَهَا - إِنَّ لَمْ تَزُرْ حَلْبَا
 شَهْبَاءُ لَوْ كَانَتْ الْأَحْلَامُ كَأَسَ طَلَى
 فِي رَاخَةِ الْفَجْرِ كُنْتَ الزُّهْرَ وَالْحَبِيبَا
 أَوْ كَانَ لِلَّيْلِ أَنْ يَخْتَارَ حِلْيَتَهُ
 وَقَدْ طَلَعْتَ عَلَيْهِ، لَا الشُّهْبَا

(١) اللبانة : الحاجة .

لَوْ أَنْصَفَ الْعَرَبُ الْأَحْرَارُ نَهَضَتَهُمْ
لَشِيدُوا لَكَ فِي سَاحَاتِهَا النُّصَبَا
لَكِنْ خُلِقْتَ لِأَمْرِ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
مَنْ يَعْشَقُ الدُّلَّ أَوْ مَنْ يَعْبُدُ الرُّتَبَا

* * *

مَلَاعِبَ الصَّيْدِ مِنْ حَمْدَانٍ، مَا نَسَلُوا
إِلَّا الْأَهْلَةَ وَالْأَشْبَالَ وَالْقُضْبَا
الْخَالِعِينَ عَلَى الْأَوْطَانِ بَهْجَتِهَا
وَالرَّافِعِينَ عَلَى أَرْوَاحِهَا الْقَضْبَا
حُسَامُهُمْ مَا نَبَا فِي وَجْهِ مَنْ ضَرَبُوا
وَمُهْرُهُمْ مَا كَبَا فِي إِثْرِ مَنْ هَرَبَا
مَا جَرَّدَ الدَّهْرُ سَيْفًا مِثْلَ «سَيْفِهِمْ»
يُجْرِي بِهِ الدَّمُ أَوْ يُجْرِي بِهِ الدُّهْبَا
رَبُّ الْقَوَافِي عَلَى الْإِطْلَاقِ شَاعِرُهُمْ
الْخُلْدُ وَالْمَجْدُ فِي آفَاقِهِ اصْطَحَبَا
سَيْفَانِ فِي قَبْضَةِ الشُّهْبَاءِ لَا ثُلْمَا
قَدْ شَرَّفَا الْعَرَبَ بَلْ قَدْ شَرَّفَا الْأَدْبَا

* * *

عُرْسٌ مِنَ الْجِنِّ فِي الصَّحْرَاءِ قَدْ نَصَبُوا
لَهُ السُّرَادِقَ تَحْتَ اللَّيْلِ وَالْقُبَا
كَأَنَّهُ تَذْمُرُ الزُّهْرَاءِ مَارِجَةً
بِمِثْلِ لُسْنِ الْأَفَاعِي تَقْدِفُ اللَّهْبَا

أَوْ هَضْبَةٌ مِنْ خُرَافَاتٍ مُرَقَّعَةٍ
 بِأَعْيُنٍ مِنْ لَظَى أَوْ مِنْ رُؤُوسٍ ظُبَى
 تَخَاصَرَ الْجِنُّ فِيهَا بَعْدَ مَا سَكَرُوا
 وَبَعْدَ مَا احْتَدَمَتْ أَوْتَارُهُمْ صَحْبَا
 فَأَفْزَعَ الرَّمْلَ مَا زَفُوا وَمَا عَزَفُوا
 فَطَارَ يَسْتَجِدُّ الْقِيْعَانُ وَالْكُتْبَا
 تَكْشَفُ الصُّبْحُ عَنْ طِفْلِ وَمَارِدَةٍ
 لَهُ عَلَى صَدْرِهَا زَأْرٌ إِذَا غَضِبَا
 كَأَنَّهُ الزُّبَيْقُ الرَّجْرَاجُ فِي يَدَيْهَا
 أَوْ خَفَقَةُ الْبَرْقِ إِمَّا اهْتَزَّ وَاضْطَرَبَا
 نَادَى أَبُوهُ - عَظِيمُ الْجِنِّ - عِثْرَتُهُ،
 فَأَقْبَلُوا يَنْظُرُونَ الْبِدْعَةَ الْعَجَبَا
 مَاذَا نُسَمِّيهِ؟ ... قَالَ الْبَعْضُ: صَاعِقَةٌ
 فَقَالَ: كَلًّا... فَقَالُوا: عَاصِفًا - فَأَبَى
 فَقَامَ كَالطُّودِ مِنْهُمْ مَارِدٌ لَسِينٌ
 وَقَالَ: لَمْ تُنْصِفُوهُ اسْمًا وَلَا لَقَبَا
 سَنَبَعْتُ الْفِتْنَةَ الْكُبْرَى عَلَى يَدَيْهِ
 فَتَشْغَلُ النَّاسَ وَالْأَقْلَامَ وَالْكُتْبَا
 وَنَجْعَلُ الشُّعْرَ رَبًّا يَسْجُدُونَ لَهُ
 فَإِنْ غَوَوْا فَلَقَدْ نِلْنَا بِهِ الْأَرْبَا

وَإِخْتَالَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :
 سَمِئْتُهُ الْمُتَنَبِّيَ فَاثْتَشَرُوا طَرَبًا
 وَزَلْزَلُوا الْيَدَ حَتَّى كَادَ سَالِكُهَا
 يَهْوِي بِهِ الرَّحْلُ لَا يَذِرِي لَهُ سَبِيًا
 يَرَى السَّرَابَ عُبابًا هَاجَ زَاخِرُهُ
 وَالرَّمْلَ يَلْتَجِفُ الْأَزْهَارَ وَالْعُشْبَا

* * *

إِيهِ أَخَا الْوَفْرَةِ السُّودَاءِ كَمْ مَلِكٍ
 أَعَاضَكَ التَّاجَ مِنْهَا ، لَوْ بِهَا اعْتَصَبَا
 طَلَبْتَ بِالشَّعْرِ دُونَ الشَّعْرِ مَرْتَبَةً
 فَشَاءَ رَبُّكَ أَنْ لَا تُذْرِكَ الطُّلُبَا
 إِذَنْ لَأَتَكَلَّتْ أُمُّ الشَّعْرِ وَاجِدَهَا
 وَعُطِّلَ الْوَكْرُ لَا شَدُوا وَلَا زَغَبَا
 لَوْ لَا طِمَاحُكَ مَا غَنَيْتَ قَافِيَةً
 بَوَّاتُهَا الشَّمْسُ ، أَوْ قَلَّدَتْهَا الْحَقَبَا
 «خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا حَلِمْتَ بِهِ»
 فَرُبُّ جِلْمٍ جَمِيلٍ أَوْزَتْ الْعَطَبَا

* * *

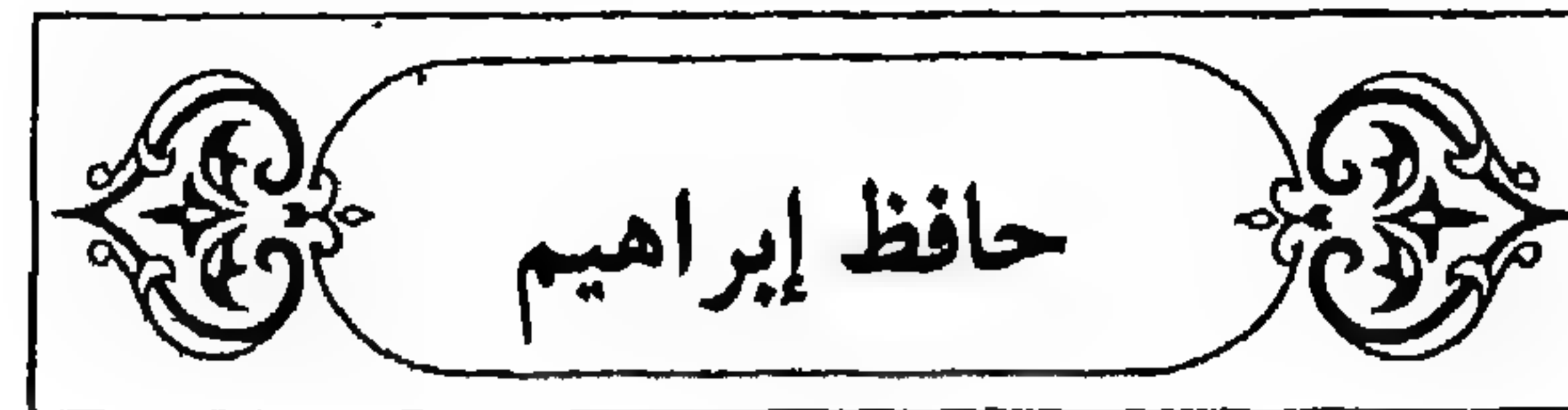
أَبَا الْفُتُوحَاتِ لَمْ تُزَجِ الْخَمِيسَ لَهَا
 وَلَا لَيْسَتْ إِلَيْهَا الْبَيْضَ وَالْيَلْبَا
 تَأْتِي التُّخُومَ فَتَلْقَاهَا مُهَلَّلَةً
 مِثْلَ الْمَرِيضِ أَتَاهُ بِالشِّفَاءِ نَبَا

ما الفتحُ أَهْدَى إِلَيْكَ الرُّوضِ وَالسُّحْبَا
 كالفتحِ جَرَّ عَلَيْكَ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا
 وَلَوْ فَتَحْتَ بِحَدِّ السَّيْفِ لَانْحَطَمَتْ
 تَيْجَانُ قَوْمٍ، حَشَوَهَا الظُّلَمَ وَالرَّهْبَا
 «مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُذَرِّكُهُ»
 وَيُذَرِّكُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى وَمَا طَلَبَا
 قَدْ يُؤْثِرُ الدَّهْرُ إِنْسَانًا فَيَحْرِمُهُ
 مَنْ يَمْنَعُ الشَّيْءَ أَخِيَانًا فَقَدْ وَهَبَا
 يَا مُلَبِّسَ الْحِكْمَةِ الْغَرَاءِ رَوَعَتَهَا
 حَتَّى هَتَفْنَا: أَوْحِيَا قُلْتَ أَمْ أَدْبَا
 كَأَنَّمَا هِيَ أَصْدَاءُ يُرَدِّدُهَا
 هَذَا إِذَا بَثَّ، أَوْ هَذَا إِذَا عَتَبَا
 قَالُوا اسْتَبَاحَ أَرِسْطُو، حِينَ أَعْجَزَهُمْ،
 وَإِنَّهُ اسْتَلَّ مِنْ آيَاتِهِ النُّخْبَا
 مَهْلًا، فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا فَيْضُ فَلْسَفَةٍ
 يَعُودُ بِالدَّرِّ مِنْهُ كُلُّ مَنْ دَابَا
 مَنْ عَلَّمَ ابْنَ أَبِي سُلَمَى «حَكِيمَتَهُ»
 وَقَسَّ سَاعِدَةَ الْأُمَثَالِ وَالْخُطْبَا؟
 قَالُوا الْجَدِيدُ، فَقُلْنَا: أَنْتَ حُجَّتُهُ
 يَا وَاهِبًا كُلَّ عَصْرِ كُلِّ مَا خَلَبَا
 أَفِكْرَةٌ لَمْ تَكُنْ فَتَقَّتْ بُرْعُمَهَا
 وَجِدَّةٌ لَمْ تَكُنْ أَمَّا لَهَا وَأَبَا

بَعْضُ الْجَدِيدِ الَّذِي يَدْعُونَهُ أَدْباً
يَمُوتُ فِي يَوْمِهِ، هَذَا إِذَا وَهَبَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ حُسْنُ الْوَجْهِ تَعْرِضُهُ
فَقَدْ ظَلَمْتَ بِهِ أَثْوَابَكَ الْقُشْبَا
عَفُوا نَبِيَّ الْقَوَافِي، أَيُّ نَابِغَةٍ
لَمْ يَزْرَعُوا حَوْلَهُ الْبُهْتَانَ وَالْكَذِبَا
مَنْعَتْ عَنْهُمْ ضِيَاءَ الشَّمْسِ فَأَنْحَجَبُوا
فَهَلْ تَلَوُّهُمْ إِنْ مَزَّقُوا الْحُجُبَا
أَضْرَمْتَ ثَوْرَتَكَ الْهَوَجَاءَ فَالتَّهَمْتَ
مِنْ الْقَرِيضِ الْهَشِيمِ الْغَتَّ وَالْخَشْبَا
وَعَانَ شِعْرُكَ شِعْرَ الْكَائِدِينَ لَهُ،
لِنَفْسِهِمْ حَفَرْتَ أَيْدِيهِمِ التُّرْبَا
حَتَّى رَجَعْتَ وَلِلْأَقْلَامِ هَلْهَلَةٌ
فِي كَفِّ أَبْلَغٍ مَنْ غَنَى وَمَنْ طَرِبَا...

* * *

يَا خَالِقاً جِيلَهُ، لَوْلَاكَ مَا عَرَفْتُ
لَهُ الْأَوَاخِرُ لَا رَأْساً وَلَا ذَنْبَا
غَضِبْتَ لِلْعَقْلِ أَنْ يَشْقَى فَتُرْتُ لَهُ
بِمِثْلِ مَا أَنْدَفَعَ الْبُرْكَانُ وَاصْطَخَبَا
هَلِ النُّبُوَّةُ إِلَّا ثَوْرَةٌ جَعَصَفْتُ
عَلَى التَّقَالِيدِ حَتَّى تَسْتَحِيلَ هَبَا
مَا ضَرَّ مُوقِدَهَا، وَالْخُلْدُ مَنْزِلُهُ،
إِذَا رَمَى نَفْسَهُ فِي نَارِهَا حَطْبَا...



هو محمد حافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م) شاعر مصر القوميّ، ومدوّن أحداثها نيّفاً وربع قرن. لُقّب بشاعر النيل، وطار صيته، واشتهر شعره ونثره. كان قويّ الحافظة، راوية، مرحاً، حاضر النكتة، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه وشقائه. له ديوان شعريّ، وبعض المؤلفات النثرية.

من أهم قصائده في الهجاء قصيدتان، قال الأولى منهما في رثاء الشيخ محمد عبده، وقال الثانية في رثاء مصطفى كمال باشا، وفيما يلي نصّهما:

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

سَلامٌ على الإسلامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
سَلامٌ على أيّامِهِ النُّضْرَاتِ^(١)
على الدِّينِ والدُّنْيَا، على العِلْمِ والحِجَا
على البِرِّ والتَّقْوَى، على الحَسَنَاتِ
لقد كنتُ أَخْشَى عَادِي المَوْتِ قَبْلَهُ
فأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

(١) النضرات: ذوات الحسن والرواق.

فوا لهفي - والقبرُ بيّني وبَيَّنّه -
 على نَظَرَةٍ مِنْ تِلْكَمُ النُّظَرَاتِ (١)
 وَقَفْتُ عَلَيْهِ حَاسِرَ الرَّأْسِ خَاشِعاً
 كَأَنِّي جِيَالُ الْقَبْرِ فِي عَرَفَاتِ (٢)
 لَقَدْ جَهِلُوا قَدَرَ الْإِمَامِ فَأَوْدَعُوا
 تَجَالِيدَهُ فِي مُوْجِشٍ بِفَلَاةِ (٣)
 وَلَوْ ضَرَحُوا بِالْمَسْجِدَيْنِ لَأَنْزَلُوا
 بِخَيْرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ خَيْرَ رُفَاتِ (٤)
 تَبَارَكْتَ هَذَا الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ
 أَيُّتَرَكُ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ حُمَاةٍ؟
 تَبَارَكْتَ! هَذَا عَالِمُ الشَّرْقِ قَدْ قَضَى
 وَلَئِنَّ قَنَاةَ الدِّينِ لِلْغَمَزَاتِ (٥)
 زَرَعْتَ لَنَا زَرْعاً فَأَخْرَجَ شَطْأَهُ
 وَبَنَتْ وَلَمَّا نَجَّتِ الثَّمَرَاتِ (٦)

(١) وا لهفي : كلمة يتحسر بها على ما فات .

(٢) حاسر الرأس : عاريه . وحيال القبر : تلقاءه وأمامه .

(٣) تجاليد الإنسان : جسمه وبدنه . والفلاة : الصحراء الواسعة .

(٤) ضرح للميت : حفر له ضريحاً . ويريد «بالمسجدين» : المسجد الحرام بمكة ، وبيت المقدس . ورفات الميت : ما يلي وتكسر من عظامه . يقول : لو أنهم حفروا بأحد المسجدين ضريحاً لهذا الجسم لكان حريّاً بذلك ، لأنه خير جسم يدفن في خير بقعة من الأرض .

(٥) قضى : مات . والقناة : الرمح . ولين القناة : كناية عن الضعف والوهن . ويريد «بالغمزات» : المطاعن الموجهة إلى الإسلام من أعدائه .

(٦) شطء الزرع : فراخه أو سنبله . وكثى بالزرع : عما قام به الفقيه من ضروب الإصلاح ، وبنت : بعدت .

فَوَاهَاً لَهُ أَلَّا يُصِيبَ مُوَفَّقاً
 يُشَارِفُهُ وَالْأَرْضُ غَيْرُ مَوَاتٍ^(١)
 مَدَدْنَا إِلَى الْأَعْلَامِ بَعْدَكَ رَاخِناً
 فَرُدَّتْ إِلَى أَعْطَافِنَا صَفِرَاتٍ^(٢)
 وَجَالَتْ بِنَا تَبْغِي سِوَاكَ عُيُونُنَا
 فَعُذْنَ وَآثَرْنَ الْعَمَى شَرِقَاتٍ^(٣)
 وَأَذَوْكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأَنْكَرُوا
 مَكَانَكَ حَتَّى سَوَّدُوا الصَّفَحَاتِ^(٤)
 رَأَيْتَ الْأَذَى فِي جَانِبِ اللَّهِ لَذَّةً
 وَرُحْتَ وَلَمْ تَهْمُمْ لَهُ بِشَكَاةٍ
 لَقَدْ كُنْتَ فِيهِمْ كَوَكْباً فِي غِيَاهِبِ
 وَمَعْرِفَةٍ فِي أَنْفُسِ نَكَرَاتٍ^(٥)
 أَبْنَتْ لَنَا التَّنْزِيلَ حُكْماً وَحِكْمَةً
 وَفَرَّقْتَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ^(٦)

(١) الضمير في «له» يرجع إلى الزرع. ويشارفه: يشرف عليه. والأرض الموات: الجلبة التي لا تنبت. يخشى ألا يجد الزرع من يتعهده بعد الفقد مع خصوبة الأرض وقبولها لما يغرس فيها.

(٢) يريد «بالأعلام»: المشهورين من العلماء. والراح: جمع راحة، وهي الكف. والأعطاف: الخواصر. وصفرات، أي خاليات.

(٣) شقيقات: أي محرمات من البكاء.

(٤) يشير بهذا البيت وما بعده إلى المطاعن التي كان يوجهها أعداء الفقيه إليه، وينشرونها في بعض الصحف تشهيراً به، وتحقيراً من شأنه.

(٥) الغياهت: الظلمات.

(٦) يشير بهذا البيت إلى الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الإمام في تفسير القرآن.

وَوَفَّقْتَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْحِجَابِ
فَأَطْلَعْتَ نُوراً مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ
وَقَفْتَ (لِهَانُوتُو) وَ (رِينَان) وَقِفَةً
أَمَدُّكَ فِيهَا الرُّوحُ بِالنَّفَحَاتِ^(١)
وَحِفَّتَ مَقَامَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
فَخَافَكَ أَهْلُ الشُّكِّ وَالنَّزَعَاتِ^(٢)
وَكَمْ لَكَ فِي إِغْفَاءَةِ الْفَجْرِ يَقْظَةً
نَفَضْتَ عَلَيْهَا لَذَّةَ الْهَجْعَاتِ^(٣)
وَوَلَّيْتَ شَطْرَ الْبَيْتِ وَجْهَكَ خَالِياً
تُنَاجِي إِلَهَ الْبَيْتِ فِي الْخَلَوَاتِ^(٤)
وَكَمْ لَيْلَةٍ عَانَدْتَ فِي جَوْفِهَا الْكَرَى
وَنَبَّهْتَ فِيهَا صَادِقَ الْعَزَمَاتِ^(٥)
وَأَرْصَدْتَ لِلْبَاغِي عَلَى دِينِ أَحْمَدٍ
شَبَابَةَ يَرَاعٍ سَاحِرِ النَّفَثَاتِ^(٦)

(١) هانوتو: جبرائيل هانوتو السياسي المؤرّخ الفرنسي. ولد في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٥٣ م، وقد كتب مقالات في الطعن على الإسلام. ورينان: هو أرنست رينان الفرنسي، ولد في ١٧ فبراير سنة ١٨٢٣ م، وقد كان قساً كاثوليكياً، وهو مشهور بمطاعنه في الدين الإسلامي كصاحبه السابق، وقد ردّ الفقيه على مطاعنهما. وتوفي رينان في سنة ١٨٩٢ م. والروح: جبريل.

(٢) النزعات: الوسوس.

(٣) الإغفاءة: النوم. «ونقضت عليها» الخ، أي أنه خلع على اليقظة لذّة الهجعة فصار يتلذذ من اليقظة تلذذ الناس بالهجعة، أي النوم.

(٤) البيت: الكعبة.

(٥) الكرى: النوم. وصادق العزمات: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي العزمة الصادقة.

(٦) أرصدت: أعددت وهيئات. واليراع: القلم. وشباته: سنه. ونفثات القلم: ما يفيض به من كلمات تشبيهاً لها بما ينفثه الساحر في العقد.

إِذَا مَسَّ خَدُّ الطُّرْسِ فَاضَ جَبِينُهُ
 بِأَسْطَارِ نُورٍ بَاهِرِ اللَّمَعَاتِ^(١)
 كَأَنَّ قَرَارَ الْكَهْرِبَاءِ بِشَقِّهِ
 يُسْرِعُ سَنَاهُ أَيَسَّرُ اللَّمَسَاتِ^(٢)
 فَيَا سَنَةً مَرَّتْ بِأَعْوَادِ نَعِيشِهِ
 لَأَنْتِ عَلَيْنَا أَشْأَمُ السُّنَوَاتِ
 حَطَمْتَ لَنَا سَيْفًا، وَعَطَلْتَ مِنْبَرًا
 وَأَذَوَيْتِ رَوْضًا نَاضِرَ الزُّهْرَاتِ^(٣)
 وَأَطْفَأْتَ نِيرَاسًا وَأَشْعَلْتَ أَنْفُسًا
 عَلَى جَعَمَرَاتِ السُّعُزِّ مَنُطَوِّسَاتِ^(٤)
 رَأَى فِي لَيْالِيكَ الْمُنَجِّمُ مَا رَأَى
 فَأَنْذَرَنَا بِالْوَيْلِ وَالْعَثَرَاتِ^(٥)
 وَنَبَّأَهُ عِلْمُ النُّجُومِ بِحَادِثِ
 تَبَيُّتٍ لَهُ الْأَبْرَاجُ مُضْطَرِبَاتِ
 رَمَى السَّرْطَانَ اللَّيْثَ، وَاللَّيْثُ خَادِرُ
 وَرُبُّ ضَعِيفٍ نَافِذِ الرَّمِيَاتِ^(٦)

(١) الطرس (بالكسر): الصحيفة التي يكتب فيها.

(٢) سناه: ضوءه ونوره: يقول: كأن الكهرباء مستقرة في شق هذا القلم، فمجرد اللمس يظهر نوره.

(٣) حطمت: كسرت. وأوذيت: أذبلت.

(٤) النبراس: المصباح.

(٥) يريد «بالمنجم»: أحد المنجمين، وكان قد تنبأ بوفاة الأستاذ الإمام في السنة التي توفي فيها، وكتب ذلك في تقويمه السنوي.

(٦) رمى السرطان... الخ، إشارة إلى أن المرحوم الإمام مات بالسرطان، وهو هذا الداء =

فَأُودَى بِهِ خَتْلًا فَمَالَ إِلَى الثَّرَى
 وَمَالَتْ لَهُ الْأَجْرَامُ مُنْحَرِفَاتٍ^(١)
 وَشَاعَتْ تَعَاذِي الشُّهْبِ بِاللَّمَحِ بَيْنَهَا
 عَنِ النَّيِّرِ الْهَائِي إِلَى الْفَلَوَاتِ
 مَشَى نَعْشُهُ يَخْتَالُ عُجْبًا بِرَبِّهِ
 وَيَخْطِرُ بَيْنَ اللَّئْسِ وَالْقُبُلَاتِ^(٢)
 تَكَادُ الدَّمُوعُ الْجَارِيَاتُ تُقْلَهُ
 وَتَذْفَعُهُ الْأَنْفَاسُ مُسْتَعِرَاتٍ^(٣)
 بَكَى الشَّرْقُ فَارْتَجَّتْ لَهُ الْأَرْضُ رَجَّةً
 وَضَاقَتْ عُيُونُ الْكَوْنِ بِالْعَبَرَاتِ
 فِيهِ الْهِنْدُ مَحْزُونٌ، وَفِي الصِّينِ جَاذِعٌ
 وَفِي (مِصْرَ) بَاكِ دَائِمُ الْحَسَرَاتِ
 وَفِي الشَّامِ مَفْجُوعٌ، وَفِي الْفُرْسِ نَادِبٌ
 وَفِي ثَوْنٍ مَا شِثَّتْ مِنْ زَفَرَاتِ
 بَكَى عَالَمُ الْإِسْلَامِ عَالِمَ عَصْرِهِ
 سِرَاجَ الدِّيَاجِي هَادِمَ الشُّبُهَاتِ^(٤)

= المعروف . والليث خادر: أي والأسد في أجمته . ويطلق السرطان أيضاً على برج في السماء يقابله برج الأسد الذي أطلق الشاعر عليه لفظ الليث . واستعمل الشطر الأول في المعنيين، كما يدل عليه سياق في الكلام في الأبيات التالي .

(١) أودى به : ذهب به . والختل : الخداع . والأجرام : الأفلاك .

(٢) ربه : صاحبه .

(٣) تقله : تحمله . ومستعرات : مشتغلات من الحزن .

(٤) الدياجي : الظلمات .

مَلَاذَ عَيَايِلٍ، ثِمَالِ أَرَامِلٍ
 غِيَاثَ ذَوِي عُدْمٍ إِمَامَ هُدَاةٍ^(١)
 فَلَا تَنْصِبُوا لِلنَّاسِ تَمَثَالَ (عَبْدِهِ)
 وَإِنْ كَانَ ذِكْرِي حِكْمَةً وَثَبَاتٍ
 فَإِنِّي لِأُخْشَى أَنْ يَضِلُّوا فَيُومِثُوا
 إِلَى نُورِ هَذَا الْوَجْهِ بِالسَّجَدَاتِ^(٢)
 فَيَا وَيْحَ لِلشُّورَى إِذَا جَدَّ جَدُّهَا
 وَطَاشَتْ بِهَا الْأَرَاءُ مُشْتَجِرَاتٍ^(٣)
 وَيَا وَيْحَ لِلْفُتَيَا إِذَا قِيلَ مَنْ لَهَا؟
 وَيَا وَيْحَ لِلْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ
 بَكَيْنًا عَلَى فَرْدٍ وَإِنْ بُكَاءَنَا
 عَلَى أَنْفُسٍ لِلَّهِ مُنْقَطِعَاتِ
 تَعَهَّدَهَا فَضْلُ الْإِمَامِ وَحَاطَهَا
 بِإِحْسَانِهِ وَالذَّهْرُ غَيْرُ مُوَاتِي^(٤)
 فَيَا مَنْزِلًا فِي (عَيْنِ شَمْسٍ) أَظْلُنِي
 وَأَرْغَمَ حُسَّادِي وَغَمَّ عُدَاتِي^(٥)

-
- (١) الملاذ (بالفتح): الملجأ. وعيائل: جمع عيّل (بتشديد الياء). وعيل الرجل: من يتكفل بهم ويمونهم ويقوم عليهم. وثمان الأراميل: من يقوم بأمرهن ويعينهن. والغياث: المغيث والمعين. والعدم: الفقر.
- (٢) يومثوا: يشيروا. وقد ردّ الشاعر بهذا البيت على ما اقترحه بعضهم من إقامة تمثال للأستاذ الإمام.
- (٣) يريد «بالشورى» مجلس شورى القوانين وكان الفقيد عضواً به. وطاشت: انحرفت عن القصد. ومشتجرات: مشتبات لا يتميز فيها الحق من الباطل.
- (٤) حاطها: صانها وحفظها. والمواتي: الموافق المساعد.
- (٥) عين شمس: ضاحية من ضواحي القاهرة معروفة، وكان فيها بيت الفقيد.

دَعَائِمُهُ، التَّقْوَى وَآسَاسُهُ الْهُدَى
 وفيه الأيادي مَوْضِعُ اللَّيْنَاتِ
 (١) عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ، مَا لَكَ مُوَحِّشاً
 عَبُوسَ الْمَغَانِي مُقْفِرَ الْعَرَصَاتِ (٢)
 لَقَدْ كُنْتَ مَقْصُودَ الْجَوَانِبِ أَهْلاً
 تَطُوفُ بِكَ الْأَمَالُ مُبْتَهَلَاتِ (٣)
 مَثَابَةً أَرْزَاقِي، وَمَهْطَ حِكْمَةٍ
 وَمَطْلَعَ أَنْوَارٍ، وَكَنْزَ عِظَاتِ (٤)

رثاء مصطفى كامل باشا

مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في مصر وزعيم المناوئين للاحتلال، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤ وكان خطيباً سياسياً مصقاً وصحافياً واسع النفوذ. واليه يرجع الفضل في إذكاء روح القومية المصرية وتوحيد صفوف المصريين للمطالبة بحقوقهم. توفي سنة ١٩٠٨، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وكان يوم جنازته يوماً شعبياً مشهوداً، وقد عمّ الحزن عليه مصر بل جميع الأقطار العربيّة، ورثاه الأدب العربيّ في كل مكان. ومِمَّا قِيلَ فيه قصيدة حافظ التالية :

أَيَا قَبْرُ هَذَا الضَّيْفِ آمَالُ أُمَّةٍ
 فَكَبَّرُ وَهَلَّلُ وَالْتَقَى ضَيْفُكَ جَائِئِيَا

-
- (١) دَعَائِمُ الْبَيْتِ : عَمْدُهُ . وَالْأَيَادِي : النَّعْم . وَاللَّيْنَاتُ : مَا يَضْرِبُ مِنَ الطِّينِ لِلْبِنَاءِ ، الْوَاحِدَةُ لَبْنَةٌ .
 (٢) الْمُوَحِّشُ : الْخَالِي الَّذِي لَيْسَ بِهِ سَاكِنٌ . وَمَعَانِيهِ : مَنَازِلُهُ الَّتِي كَانَ يَنْزِلُ بِهَا سَاكِنُوهُ ، الْوَاحِدُ مَغْنًى . وَعَرَصَاتُهُ : سَاحَاتُهُ .
 (٣) مَنْزِلُ أَهْلٍ : عَامِرٌ بِأَهْلِهِ . وَمُبْتَهَلَاتٌ دَاعِيَةٌ مُتَضَرِّعَةٌ .
 (٤) الْمَثَابَةُ : الْمَرْجِعُ . أَيُّ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ فِي طَلَبِ أَرْزَاقِهِمْ .

عزیزُ علینا اَنْ نَرَى فیک (مُصْطَفی)
 شَهِیدَ العُلَى فی زَهْرَةِ العُمَرِ ذاوِیا
 اَیا قَبْرُ لَوْ اَنَا فَقَدْنَاهُ وَحَدَهُ
 لَکَانَ التَّأْسِی مِنْ جَوَى الحَزَنِ شافِیا^(١)
 وَلَکِنْ فَقَدْنَا کُلَّ شَیْءٍ بِفَقْدِهِ
 وَهَیْهَاتَ اَنْ یَأْتِی بِه الدُّهْرُ ثانیَا
 فِیا سائِلِی اَیْنَ المَرْوَةِ وَالوفا
 وَایْنَ الحِجَا والرَّأِی؟ وَیَحْکَ هَا هِیا
 هَنِیئًا لَهُمْ فَلِیَأْمَنُوا کُلَّ صَائِحٍ
 فَقَدْ أُسْکِتَ الصُّوْتُ الَّذِی کَانَ عَالِیا^(٢)
 وَمَاتَ الَّذِی أَحْیَا الشُّعُورَ وَسَاقَهُ
 اِلَى المَجْدِ فَاسْتَحْیَا النُّفُوسَ البَوَالِیا^(٣)
 مَدَحْتُکَ لَمَّا کُنْتَ حَیًّا فَلَمْ أُجِدْ
 وَلِأَنِّی أُجِیدُ الیَوْمَ فِیکَ المَرَاثِیا
 عَلَیْکَ، وَإِلَّا مَا لِذَا الحَزَنِ شَامِلًا
 وَفِیکَ، وَإِلَّا مَا لِذَا الشُّعْبِ بَاکِیا^(٤)
 یَمُوتُ المَدَاوِی لِلنُّفُوسِ وَلَا یَرَى
 لَمَّا فِیه مِنْ دَاءِ النُّفُوسِ مُدَاوِیا

(١) التَّأْسِی : التَّصَبُّرُ وَالتَّعَزُّی . وَجَوَى الحَزَنِ : حَرْقَتِهِ .

(٢) الضَّمِیرُ فِی «لَهُمْ» : لِلْأَنْجَلِیزِ .

(٣) اسْتَحْیَاهُ أَوْ أَحْیَاهُ وَالْإِسْتَحْیَاءُ (لُغَةً) : الْإِسْتِیْقَاءُ ، یَقَالُ : اسْتَحْیَا فُلَانٌ فُلَانًا ، إِذَا أَبْقَاهُ حَیًّا .

(٤) عَلَیْکَ ، أَوْ عَلَیْکَ الحَزَنِ ، وَفِیکَ ، أَوْ فِیکَ البِکَاءُ .

وَكُنَّا نِيَامًا حِينَمَا كُنْتَ سَاهِدًا
فَأَسْهَدْتَنَا حُزْنًا وَأَمْسَيْتَ غَافِيَا
شَهِيدَ الْعَلَا، لَا زَالَ صَوْتُكَ بَيْنَنَا
يَرْنُ كَمَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ دَاوِيَا
يُهِيبُ بِنَا هَذَا بِنَاءُ أَقْمَتِهِ
فَلَا تَهْدِمُوا بِاللَّهِ مَا كُنْتَ بَانِيَا^(١)
يَصْبِيحُ بِنَا: لَا تُشْعِرُوا النَّاسَ أَنَّنِي
قَضَيْتُ وَأَنَّ الْحَيَّ قَدْ بَاتَ خَالِيَا^(٢)
يُنَاشِدُنَا بِاللَّهِ الْأَلَّا تَفَرَّقُوا
وَكُونُوا رَجَالًا لَا تَسْرُوا الْأَعَادِيَا
فَرُوحِي مِنْ هَذَا الْمَقَامِ مُطَلَّةً
تُشَارِفُكُمْ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ بَالِيَا^(٣)
فَلَا تُحْزِنُونَهَا بِالْخِلَافِ فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِي الْخِلَافِ الدَّوَاهِيَا
أَجَلْ، أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى الْخَيْرِ إِنَّنَا
عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا فَنَمُ أَنْتَ هَانِيَا
بِنَاؤُكَ مَحْفُوظٌ، وَطَيْفُكَ مَائِلٌ
وَصَوْتُكَ مَسْمُوعٌ، وَإِنْ كُنْتَ نَائِيَا

(١) أهَابَ بِهِ: صَاحَ بِهِ وَدَعَاهُ.

(٢) قَضَى: مَاتَ.

(٣) شَارَفَهُ، نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ عُلًى.

عَهْدُنَاكَ لَا تَبْكِي وَتَنْكِرُ أَنْ يُرَى
 أَخُو الْبَاسِ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ بَاكِيا
 فَرَحُّصٌ لَنَا الْيَوْمَ الْبُكَاءُ وَفِي غَدٍ
 تَرَانَا كَمَا تَهْوَى جَبَالاً رَوَاسِيا
 فِيا نَيْلُ إِنْ لَمْ تَجْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ
 دَمًا أَحْمَرًا لَا كُنْتَ يَا نَيْلُ جَارِيا
 وِيا (مِصْرُ) إِنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ
 إِلَى الْحَشْرِ لَا زَالَ أَنْحِلُوكِ بَاكِيا
 وِيا أَهْلَ (مِصْرِ) إِنْ جَهَلْتُمْ مُصَابِكُمْ
 ثَقُّوا أَنَّ نَجْمَ السَّعْدِ قَدْ غَارَ هَاوِيا
 ثَلَاثُونَ عَامًا^(١) بَلْ ثَلَاثُونَ دُرَّةً
 بِجِيدِ اللَّيَالِي سَاطِعَاتِ زَوَاهِيا
 سَتَشْهَدُ فِي التَّارِيخِ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
 فَتًى مُفْرَدًا بَلْ كُنْتَ جَيْشًا مُغَازِيا

(١) توفي مصطفى كامل باشا عن أربعة وثلاثين عاماً، فالثلاثون في هذا البيت عدد تقريبي.

شفيق المعلوف

شاعر لبنانيّ، معاصر، ولد في زحلة سنة ١٩٠٥ م، وتثقف تحت إشراف أبيه العلامة عيسى، إسكندر المعلوف. أسهم بنشاط في «العصبة الأندلسيّة» التي أنشأها بعض الأدباء العرب المهاجرين إلى أميركا، وترأسها مدّة من الزمن. له مؤلفات عديدة شعراً ونثراً، منها «رواية ليلى الأخيلية»، و«نداء المجاذيف»، وملحمة «عبر» التي تُرجمت إلى عدّة لغات أجنبيّة. من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في شقيقه فوزي.

أَهْوَيْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ فِي التُّرْبِ
تَاجٌ تَدْخُرُجُ عَنْ جَبِينِ أَبِي
يَا مَوْتُ وَنِكَ! صَفَعْتَ أَيُّ أَبِ
شَيْخٍ بِعَبْءٍ سِنِيٍّ تَعِبِ
عَبَثًا تُفْتِشُ تَحْتَ لِمَتِهِ
عَنْ شَعِيرَةٍ سَوْدَاءَ لَمْ تَشِبْ^(١)
وَالْأُمُّ! هَلْ غَصَصَ النَّوَى تَرَكَتْ
فِي صَدْرِهَا شَوْطًا لِمُتَّهَبٍ؟

(١) اللَّمَّةُ: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

وَاطُولَ حَسْرَتِهَا وَقَدْ وَلَدَتْ
 لِلْمَجْدِ لَا لِخَفَائِرِ الثَّرَبِ!
 فَوَازِي، فَذَيْتُكَ، كُلُّ هَاتِفَةٍ
 فِي الصَّدْرِ تَنْطِقُ بِأَسْمِكَ الْعَذِيبِ
 بَاكَرْتُ قَبْرَكَ حِينَ رَوَّعَنِي
 أَنَّ الْقُبُورَ كَثِيفَةُ الْحُجُبِ
 فَوَدِدْتُ لَوْ كَفَّيَايَ بَعَثَرْتَا
 كُومَ الزُّهُورِ عَنِ الثَّرَى الرُّطْبِ
 فَأَزِيلَ عَنْكَ ثَرَى لُفَّتَ بِهِ
 مَنْ كَانَ مِثْلَكَ لَفٌّ بِالسُّحْبِ
 أَتَغُورُ تَحْتَ الْأَرْضِ زَوْبَعَةً
 نَارِيَّةً قُدْسِيَّةً اللَّهَبِ!
 مَذْ ضَاقَ عَنْهَا الْكَوْنُ وَآكَتَنَفَتْ
 طَرْفِيهِ مِنْ قُطْبٍ إِلَى قُطْبٍ
 سَخَّرْتَ أَجْنِحَةَ النُّسُورِ لَهَا
 وَدَفَعْتَهَا وَثْبًا إِلَى الشُّهْبِ
 لَهْفِي عَلَى نَسْرِ تَوَغَّلَ فِي
 تَحْلِيْقِهِ يَوْمًا وَلَمْ يَوُبْ
 نَسْرُ جَرِيءِ الْوُثْبِ مُكْتَمِلُ
 رِيَشِ الْجَنَاحِ مُتَمِّمُ الْأُهْبِ
 ثَبَّتَ التَّوَقُّلَ لَا يَسْفُ مَتَى
 وَطِئَ الْغَمَامَ بِمَخْلَبِ صَلَبِ^(١)

(١) التوقُّل: الصعود، يسف يمر على وجه الأرض.

ذِيَاكَ فَوْزِي فَهُوَ لَيْسَ سِوَى
نَسْرِ وَرَاءَ الْغَيْمِ مُحْتَجِبِ
لَا هَذِهِ الرُّمَمُ الَّتِي فَشِلْتُ
وَتَبَاتُهَا فَهَوَتْ عَلَى الْهَضْبِ^(١)

* * *

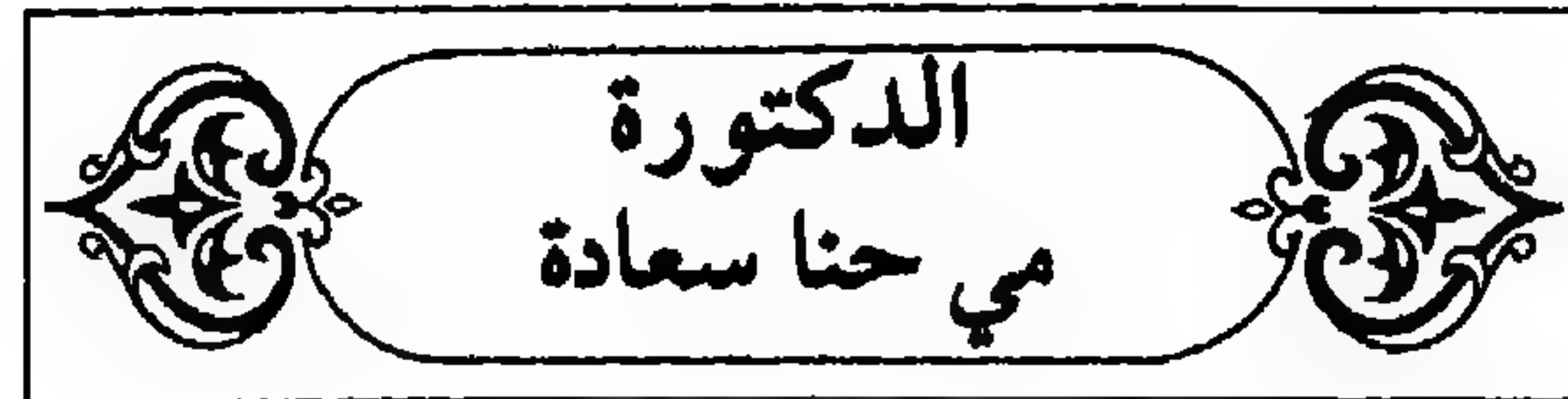
وقال بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال أخيه فوزي :

فَوْزِي، وَمَا لِي فِي الْخُطُوبِ يَدَانِ
مَا هَكَذَا الْأَخَوَانِ يَلْتَقِيَانِ
قَرَّبْتُ صَدْرِي لِلْعِنَاقِ فَلَمْ أَقْعُ
إِلَّا عَلَى قِطْعٍ مِنَ الصَّوَانِ
هَشْتُ لَكَ الْأَزْمَانَ قَبْلَ وَلَادِهَا
فَأَخْلَعُ زَمَانًا وَأَتُشِّعُ بِزَمَانِ^(٢)
لِلَّهِ نَصْبُكَ فَهُوَ أَخْلَدَ بُرْدَةَ
فِي الْأَرْضِ يَنْسُجُهَا الْخُلُودُ الْفَانِي^(٣)
نُصِبْتُ خَفَضْتُ لَهُ الْجُفُونَ كَأَنَّمَا
نُصِبْتُ حِجَارَتُهُ عَلَى أَجْفَانِي

(١) الرمم: ج رمة، وهي ما يلي من العظام.

(٢) هشت: تبسّمت وارتاحت، نشطت.

(٣) النصب: الصنم، وهنا التمثال. بردة: ثوب مخطط يلتحف به.



أديبة لبنانيّة، وُلِدَت في أميون (لبنان الشمالي) سنة ١٩١٦ م، ونالت شهادة التخصّص بأمراض النساء والتوليد سنة ١٩٤٢ م. مارست، ولا تزال، الطبّ والجراحة النسائيّة في طرابلس. لها ديوان شعريّ بعنوان «أوراق العمر».

لُقِّبَتْ، بحقّ، شاعرة الأمومة في الأدب العربيّ، نظراً إلى قصائدها الرائعة التي قالتها في أبنائها، وخاصّة في ولدها الشهيد «نقولا» الذي استُشهد في الحرب اللبنانية (١٩٧٥ م). تقول في إحدى قصائدها لابنها «حَنّا»:

لو عَلَى عَيْنِي بِنَعْلَيْهِ مَشَى
لَمْ أَقْلُ يَوْمًا لَهُ: يَا ابْنِي تَأْنِي

يمتاز رثاؤها لابنها «نقولا» باللوعة الحارّة، والعاطفة المتدفّقة، فهي تتمثّل ابنها أبداً، وتخطّبه، وتصوّره بحبّ أموميّ يفوق، في صدقه والتياعه كلّ وصف. وفيما يلي بعض النماذج منه:

الذكريات التائهة!

تَلَاَقَتْ ذِكْرِيَاتٌ فِي خَيَالِي
أَتُنْسَى الذُّكْرِيَاتُ؟ مِنْ الْمَحَال

يُورِّقُنِي التَّسَاوُلُ عَنْ فَرَاغٍ
فَرَاغٍ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيَالِي
وَطَبِّي لَا يُجِيبُ وَلَيْسَ يَذَرِي
وَكُتْبِي لَا تَرُدُّ عَلَيَّ سُؤَالِي
أَلَا فَاثْمَلًا فَرَاغًا فِي عُيُونِي
وَفِي رُوحِي وَعُذْ مِثْلِ الْهِلَالِ
تَثُورُ الذِّكْرِيَّاتُ تَمُرُّ سَكْرَى
عَلَيَّ عَيْنِي عَلَى فِكْرِي وَبَالِي
فَكُنْتُ تَعُودُ مِنْ بَعْدِ افْتِرَاقِ
وَتَحْمِلُنِي عَلَى وَهْجِ الْوَصَالِ
يُزْنِرُنِي ذِرَاعُكَ يَا يَقُولَا
عَلَى خَضْرَى تَشْدُ بِلَا كِلَالِ
تَدُورُ الْبَيْتَ بِي فَرَحًا وَشَوْقًا
تَمِيلُ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشُّمَالِ
وَفُسْطَانِي يُفْتَحُ فِيهِ وَرْدٌ
وَتَرْقُصُ فِي الْهَوَاءِ خِيوطُ شَالِي
فَأَثْمَلُ فَوْقَ صَدْرِكَ مِنْ غَيْرِ
وَأَصْعَدُ لِلسَّمَاءِ وَلَا أُغَالِي
وَتُهْمِلُ كُلَّ حَسَنَاءٍ أُمَامِي
تَعْتَرُ وَهْيَ تَمْشِي فِي ظِلَالِي
تُصْعَدُ إِذْ تَرَاكَ تَنْهَضَاتٍ
تَغَارُ مِنَ الْعِنَاقِ وَمِنْ دَلَالِي

من قال غاب؟

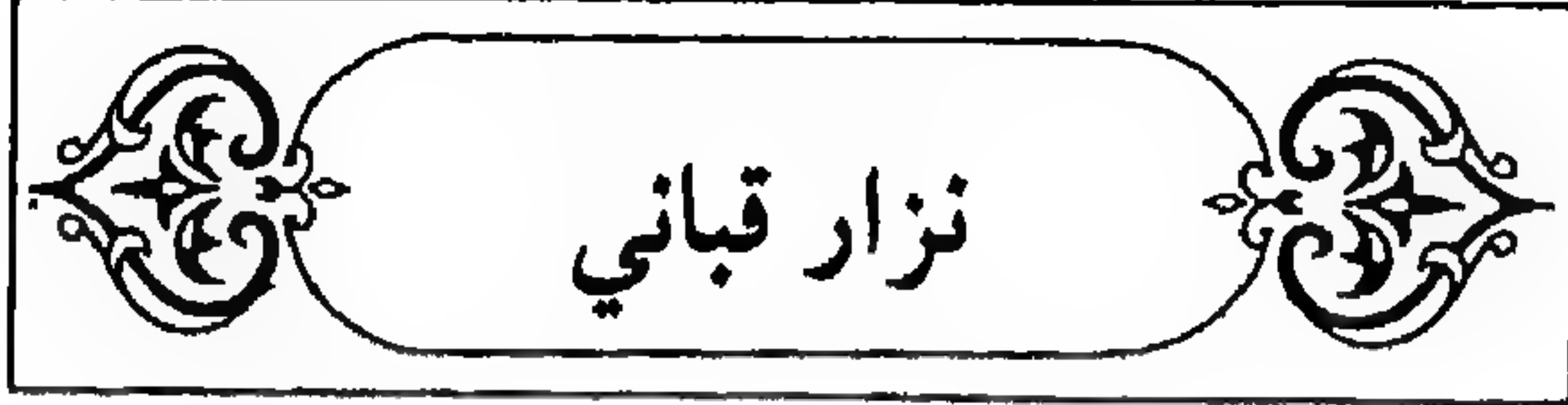
طال البعادُ أما قد حان لُقيانا
 أيا نقولا، فإنَّ البُعدَ أوهانا
 إن كنتُ أبدو أمامَ النَّاسِ هادئةً
 في قلب أمك قد فجَّرتَ بركانا
 مَنْ قال: قد غاب؟ كلاً لم يغب أبداً
 أراه في مُقْلةِ الإنسانِ إنسانا
 أراه في كُلِّ قَوْمِي غداً بطلاً
 أراه في وَطَنِ الأُحْقَادِ قُرْبانا
 أراه في الطَّبِّ في كُتبي على شفتي
 أراه في زهراتِ الوردِ ألوانا
 أراه في الطَّيْرِ في الأشجارِ بِاسِقَةً
 أراه في نَسَمَاتِ الفَجْرِ أَلحانا
 أراه حولي في رفيقٍ يُداعِبُنِي
 وفي سَرِيرِي عِنْدَ الصُّبْحِ أحياناً
 يُسِرُّ لَإِلامٍ شَكْوَاهُ بَلا وَجَلٍ
 دوماً، وَيَشْرَحُ إِشْكَالاً وَأُشْجاناً
 إِنِّي سَأَدْعُو ابْنَتِي «مِيَا» - يُفاجِئُنِي -
 حُبّاً وَمَكْرَمَةً مِنِّي وَعَرْفاناً!
 إِنَّ الخُلُودَ، أيا ابني، ليسَ يُشْغِلُنِي
 رَضِيَتْ فيكم، وكان القلبُ مَلاناً

شُكْرًا حَبِيبِي لَقَدْ أَعْطَيْتَنَا بَطْلًا
 بِهِ نَسْتِيهِ، وَقَدْ رَفَعْتَنَا شَانَا
 هَلْ قَدْ تَرَكْتِكَ يَوْمًا؟ كَيْفَ تَتْرُكُنِي
 تَكَلَّى لَأَنْسُجَ لِلْأَيَّامِ أَحْزَانَا؟
 أَصَفُّ حَوْلَكَ وَرَدًا كُنْتَ تَعُشَّقُهُ
 وَأَقْرَأُ الْكُتُبَ إِنْجِيلًا وَقُرْآنَا
 كَمْ قَدْ طَلَبْتُ وَكَمْ صَلَّيْتُ جَائِيَةً
 لِيُخَمِّي إِلَهُ أَبْطَالًا وَشَجْعَانَا
 مَضَى شَهِيدًا فَلِمَ أَبْكِي عَلَيْهِ؟ لَقَدْ
 رَدَّ الْبُودِيْعَةَ لَمَّا السَّوْقُ قَدْ حَسَانَا
 قَدْ كَانَ يَمَلَأُ «أَمِيُونًا» بِبَهْجَتِهِ
 وَالْيَوْمَ يَمَلَأُ كُلَّ الْكُونِ إِيْمَانَا

أَيْلُولُ لَيْسَ بِقَادِمٍ

الْيَوْمَ لِي بَيْتِي وَلِي وَحْدِي
 وَلِي الدَّمُوعُ نَدَى وَلِي وَجْدِي
 الدَّمْعُ لَا لَتَفْجُعٍ أَوْ حَسْرَةٍ
 لِلذِّكْرِيَّاتِ فَمَاؤَهَا وَرْدِي
 إِنِّي لِأَذْكُرُ يَوْمَ كُنْتُ عَلَيْهِ
 وَأَرَدْتُ أَنْ تَمْضِيَ مَعَ الْوُلْدِ
 فَصَدَفَتْ عَنْ كُلِّ الرِّفَاقِ وَلُغْبِهِمْ
 وَبَقِيَتْ قَرِيبِي رَافِضًا بُعْدِي

كَمْ قَدْ حَرَصْتُ عَلَى هُنَاكَ مُدَلِّلِي
 مِنْ ذَا يَكِيلُ لَكَ الْهَنَا بَعْدِي؟
 إِنِّي جُمَعْتُ الْيَاسَمِينَ أَصَوغُهُ
 عِقْدًا لَجِيدِكَ حَامِلًا وَجَدِي
 وَيُرَادُّ مِنِّي أَنْ أُغَيِّرَ مَلْبَسِي
 تَغْيِيرُ لَوْنِ الثُّوبِ هَلْ يُجَدِي؟
 مَاذَا يُبَدِّلُ أَسْوَدًا أَوْ أَبْيَضُ
 فِي الْقَلْبِ مَا فِيهِ مِنَ الْوَقْدِ!
 هَذِي قَمِيصُكَ قَدْ لَبِسْتُ أَمَا تَرَى
 فَكَأَنَّهَا خِيطٌ عَلَى قَدِّي
 رَكَضْتُ إِلَيَّ وَعَانَقْتَنِي! هَلْ دَرْتُ
 أَنِّي حَبِيبَةٌ هَذِهِ الْبُرْدِ
 حَتَّى قَمِيصُكَ هَذِهِ الْخُرْسَا حَكَتْ
 لِي قِصَّةَ الْأَبْطَالِ وَالْمَجْدِ!
 أَتَزُورُ فِي أَيْلُولِ أُمِّكَ مُهْجَتِي؟
 أَهْنَاكَ وَصَلُ بَعْدَ ذَا الصَّدِّ؟
 إِنْ لَمْ تَعُدْ، أَيْلُولُ لَيْسَ بِقَادِمٍ
 سَيَّانَ يَخْفِي الزُّهْرُ أَوْ يُبْدِي



شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطيني الأصل، سوري المولد والجنسية، لبناني الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣ م/ ١٣٤٢ هـ، وتخرج في الجامعة السورية بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسي ما بين السنة ١٩٤٥ م، والسنة ١٩٦٦ م. يُعتبر من كبار المجددين في الأدب العربي المعاصر. لُقّب بـ «شاعر المرأة»، واشتهر بالغزل، لا بالرثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقية بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقرية الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة.

شُكْرًا لَكُمْ...

شُكْرًا لَكُمْ

فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بُوْسَعُكُمْ
أَنْ تَشْرَبُوا كَأْسًا عَلَى قَبْرِ الشَّهِيدَةِ
وَقَصِيدَتِي اغْتِيلَتْ...

وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا نَحْنُ تَغْتَالُ الْقَصِيدَةُ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَجْمَلَ الْمَلِكَاتِ فِي تَارِيخِ بَابِلَ

بَلْقَيْسُ . . .

كَانَتْ أَطْوَلَ النَّخْلَاتِ فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ

كَانَتْ إِذَا تَمْشِي

تُرَافِقُهَا طَوَاوِيسُ . . .

وَتَتَّبَعُهَا أَيَّامُ

بَلْقَيْسُ . . . يَا وَجَعِي . . .

وَيَا وَجَعَ الْقَصِيدَةِ حِينَ تَلْمَسُهَا الْأَنَامِلُ

هَلْ يَا تُرَى . . .

مِنْ بَعْدِ شَعْرِكَ سَوْفَ تَرْتَفِعُ السَّنَابِلُ؟؟

* * *

يَا نَيْنَوَى الْخَضِرَاءِ

يَا غَجَرِيَّتِي الشُّقْرَاءِ

يَا أَمْوَاجَ دِجْلَةَ

تَلَبَّسُ فِي الرَّبِيعِ بِسَاقِهَا

أَحْلَى الْخَلَائِلِ

* * *

بَلْقَيْسُ!

لَا تَتَغَيَّبِي عَنِّي

فَإِنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكَ
لَا تُضِيءُ عَلَى السَّوَاجِلِ

* * *

بَلْقِيسُ
أَيُّهَا الشَّهِيدَةُ . . . وَالْقَصِيدَةُ
وَالْمُطَهَّرَةُ النُّقِيَّةُ . . .
سَبًّا تُفَتِّشُ عَنْ مَلِيكَتِهَا
فَرُدِّي لِلْجَمَاهِيرِ التَّحِيَّةَ

* * *

الموتُ في فَنَجَانٍ قَهَوْتَنَا . .
وفي مِفْتَاحِ شِقَّتِنَا . . .
وفي أَزْهَارِ شُرْفَتِنَا . . .
وفي وَرَقِ الْجَرَائِدِ . . .
والحُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ . . .

* * *

بَلْقِيسُ . . .
يَا عِطْرًا بِذَاكِرتِي
ويا قَبْرًا يُسَامِرُ فِي الْغَمَامِ
قَتْلُوكِ، في بيروت، مِثْلَ أَيِّ غَزَالَةٍ
مِنْ بَعْدِهَا . . قَتَلُوا الْكَلَامَ

* * *

بَلْقِيسُ

مُشْتَاقُونَ . . . مُشْتَاقُونَ . . مُشْتَاقُونَ .
وَالْبَيْتُ الصَّغِيرُ .
يُسَائِلُ عَنْ أَمِيرَتِهِ الْمُعْطَرَةِ الذُّيُولُ
نُصْغِي إِلَى الْأَخْبَارِ . الْأَخْبَارُ غَامِضَةٌ
وَلَا تَرَوِي فُضُولُ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

مُذَبَّحُونَ حَتَّى الْعَظَمِ
وَالْأَوْلَادُ لَا يَدْرُونَ مَا يَجْرِي
وَلَا أَدْرِي أَنَا مَاذَا أَقُولُ

* * *

هَلْ تَقْرَعِينَ الْبَابَ بَعْدَ دَقَائِقِي
هَلْ تَخْلَعِينَ الْمَعْطَفَ الشَّتَوِيَّ
هَلْ تَأْتِي بِاسِمَةٍ . . .
وَنَاضِرَةٍ . .

وَمُشْرِقَةٍ كَأَزْهَارِ الْحُقُولِ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

إِنَّ زُرُوعَكَ الْخَضِرَاءَ
مَا زَالَتْ عَلَى الْحَيْطَانِ بَاكِيَةً
وَوَجْهَكَ لَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلًا

بين المرايا والستائر
حتى سجاتك التي أشعلتها
لم تنطفئ
ودخانها
ما زال يرفض أن يسافر

* * *

بلقيس...

مطعونون مطعونون في الأعماق
والأحداق يسكنها الدهون
بلقيس..

كيف أخذت أيامي وأحلامي
والغيت الحداثق والفصول؟!!

* * *

يا زوجتي..

وحبيبتى.. وقصيدتي.. وضياء عيني
قد كنت عصفوري الجميل
فكيف هربت يا بلقيس مني؟

* * *

بلقيس..

هذا موعد الشاي العراقي المعطر
والمعتق كالسلافه
فمن الذي سيوزع الأقداح، أيتها الزرافه

وَمَنِ الَّذِي نَقَلَ الْفُرَاتَ لَبَيْتِنَا
وَوَرُودَ دِجْلَةَ وَالرَّصَافَةَ

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

يَا بَلْقَيْسُ . . .

يَا بَلْقَيْسُ . . .

كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ

فَمَنْ تُرَى تَبْكِي عَلَيَّ

بَلْقَيْسُ . . . كَيْفَ رَحَلْتَ صَامِتَةً

وَلَمْ تَضَعِي يَدَيْكَ عَلَى يَدَيَّ؟

* * *

بَلْقَيْسُ . . .

أَسْأَلُكَ السَّمَاحَ، فَرُبَّمَا

كَانَتْ حَيَاتُكَ فِدْيَةً لِحَيَاتِي

إِنِّي لَأَعْرِفُ جَيِّدًا

أَنَّ الَّذِينَ تَوَرَّطُوا فِي الْقَتْلِ كَانَ مُرَادُهُمْ

أَنْ يَقْتُلُوا كَلِمَاتِي

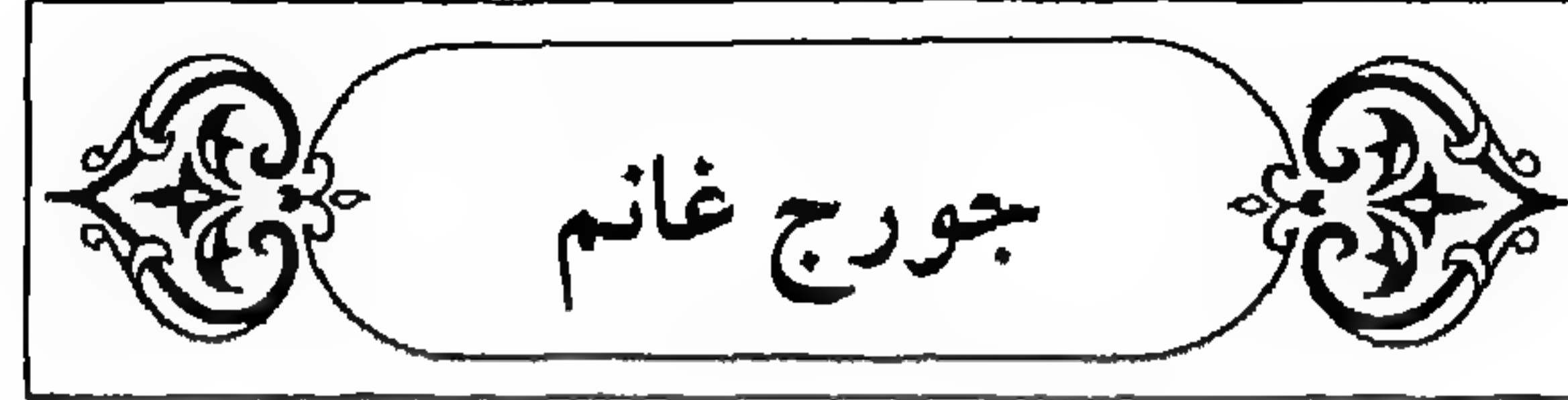
* * *

نَامِي بِحِفْظِ اللَّهِ، أَيُّهَا الْجَمِيلَةُ

فَالشُّعْرُ بَعْدَكَ مُسْتَحِيلُ

وَالْأُنُوثَةُ مُسْتَحِيلَةٌ

سَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِّنَ الْأَطْفَالِ
تَسْأَلُ عَنْ ضَفَائِرِكَ الطَّوِيلَةِ
وَتَظَلُّ أَجْيَالٌ مِّنَ الْعُشَّاقِ
تَقْرَأُ عَنْكَ آيَتُهَا الْمَعْلَمَةُ الْأَصِيلَةُ . . .



جورج غانم، شاعر لبنانيّ، ولد في بسكتا سنة ١٩٤٣، ونشأ على حُبّ الشعر في بيت والده الشاعر عبد الله غانم. عمل في التدريس والإدارة والصحافة، وحصل ثقافة فنيّة متنوّعة من رمزيّة إلى رومنطقيّة إلى كلاسيكيّة. يتميّز أدبه بأناقة الأسلوب وفرح الأجواء، وتنوّع المواضيع. من مؤلفاته: «أزهار في الخريف»، «نداء البعيد»، و«أصوات وراء الحدود». من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في والده.

والدي

١ - وَعُدْنَا، وَشَدَّ الْفَرَاغُ عَلَيْنَا
وَأَقْفَرَتِ الْأَرْضُ أَنِّي مَشِينَا
وَحِفْنَا نُرَدِّدُ اسْمَكَ خِفْنَا نُرَدِّدُ شِعْرَكَ
فَذِكْرَاكَ نَهْرٌ مِنَ النَّارِ يَجْرِي إِلَيْنَا
وَحِينَ عَرَفْنَاكَ أَنَّكَ أَمْسَيْتَ وَحَدَّكَ
بَكِينَاكَ حَتَّى بَكِينَا خُلُودَكَ بَعْدَكَ.

٢ - وَمَرَّ زَمَانٌ
غَيُومٌ وَرِيحٌ وَغُرْبَةٌ

ليالٍ تَطَاوَلُ فِيهَا الثَّوَانُ
ولا صوتَ في بيتنا لا ضياءَ
نَسَجْنَا على كُلِّ عَيْنٍ مساءً
ولم يَبْقَ إِلَّا خيَالُكَ نَقْبَعُ قَرَبَهُ
وكان دخانُ .

٣ - أبي أين وجهُكَ أين يَراعُكَ
هَجَرْتُ يَراعِي مُذْ غَابَ عَنَّا شِراعُكَ
وَأَيْنَ الأحاديثُ بَينِي وَبَينَكَ
نُرَدِّدُهَا فِي العَشيِّ
وَأَبْقَى لَعِينِكَ هَذَا الصَّبِيَّ
يُدْغِدِغُ حُضْنَكَ
بَقاياكَ فِي البَيتِ ثوبٌ عَتِيقُ
حذاء جوارِبُ .

٤ - عصاً لا تُمَسُّ
دَفاتِرُ نثرٍ وشِعْرِ
غبارُ سَرابٍ وَحْزَنُ
بَقاياكَ جَرَحُ بَقلِبي وَقَلْبِ الشَّبَابِ
وَفِي قَلْبِ أُمِّي جَراحُ
بَقاياكَ فِينا رِياحُ .

٥ - أبي أين صوتُكَ أينَ الحَنانُ
قَطَعْتَ تُخومَ الزَّمانِ

وَأَمْسَى مَكَانَكَ ذَاكَ الْمَكَانُ
نُرْجِعُ ذِكْرَكَ لِحَنًا وَيُخَنِّقُ لِحْنُ
أَبِي مِنْ بَقَايَاكَ نَحْنُ
شَبَابٌ يُعِيدُ إِلَى الْعَمْرِ وَجْهَ الْفُتُوَّةِ
أَبِي صِرْتَ فِي كُلِّ فِكْرٍ نُبُوَّةٌ .
٦ - أُنَادِيكَ أَنَا أُنَادِيكَ أَمْسَا

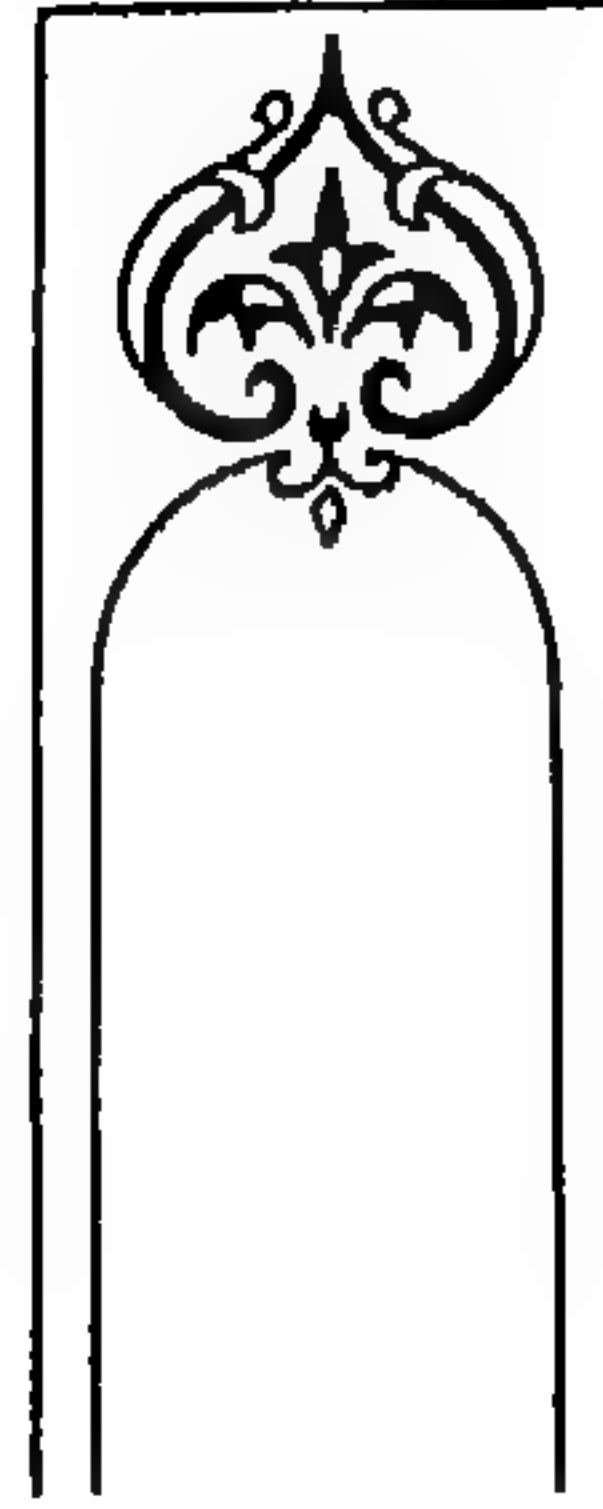
لَتُشْرِقَ فَوْقَ نَهَارِي شَمْسًا
لَتُنْبِتَ فِي رَاحَتِي زُرُوعًا
وَتُوجِدَ فِي مُقْلَتِي الرَّبِيعَا
فِيخْصِبَ تُرْبُ . . .
تُعَلِّمْنِي كَيْفَ أُعْطِي وَكَيْفَ أُحِبُّ
تُعَلِّمْنِي كَيْفَ يَحْيَا الْأَبَاةُ
وَمَاذَا تُرِيدُ الْحَيَاةُ
أَبِي عِنْدَمَا تَتَرَدَّى الشَّرُورُ
تُعَلِّمْنِي أَيَّ شَعْبٍ أُثِيرُ



نُصْبُ مدفني
إغريقي
في رودس

اعتاد الإغريق وضع أنصاب رخاميّة على مدافن موتاهم تكريماً لهم وحفظاً
لذكرهم. وتتكون هذه الانصاب من حجر مستطيل يزيّنه حفر ناتئ يمثّل الميت مع أحد
أفراد عائلته في موقف حنان وعطف.

يحمل هذا النصب في أعلاه اسم كراتيو وتيمارستا وهو يمثّل شخصين في وقفة
جانبية، يد كلّ منهما على كتف الآخر في موقف تعزية وتأسّ. وقد أظهر النحات طيّات
الثوب الإغريقيّ بكلّ أمانة ودقّة، وأوحى بالهدوء والأسى المناسبين للموضوع ولموقع
الحجر المدفنيّ.



مُتَفَرِّقات
فِي الرِّثَاءِ



(١) مَرثِيَّةُ الأَيَّامِ الحَاضِرَةِ

الرَّيْحُ ثَقِيلَةٌ عَلَيْنَا، وَرَمَادُ أَيَّامِنَا عَلَى الأَرْضِ. نَلْمَحُ رُوحَنَا فِي بَرِيقِ
شُعْرَةٍ أَوْ عَلَى طَرَفِ خُوْدَةٍ، وَخَرِيفُ المَمَالِحِ يَتَنَاثَرُ فَوْقَ جِرَاحِنَا، وَمَا مِنْ
شَجَرَةٍ أَوْ نَبْعٍ.

اللَّيْلُ يَتَخَثَّرُ^(١)، وَفَوْقَ جُثَثِ العَصَافِيرِ تَدِبُ^(٢) طِفْلَةُ النُّهَارِ، وَالبَحْرُ
يُغْلِقُ فِي وَجْهِهَا سَرِيرَهُ، وَعَبَثًا يَتَزَحَّزَحُ البَابُ المَوْصَدُ^(٣). وَنَصْرُحُ. وَنَحْلُمُ
بِالبُكَاءِ، وَلَا دَمْعَ فِي العَيُونِ، وَنَلْوِي أَعْنَاقَنَا تَحْتَ الرِّيحِ وَالصَّقِيعِ...

وَنَمْضِي، صَدُورُنَا إِلَى البَحْرِ، وَفِي كَلِمَاتِنَا يَرْقُدُ نَحِيبُ^(٤) عَصْرِ آخِرٍ،
وَكَلِمَاتُنَا لَا وَرِثَ لَهَا، نُعَانِقُ جُزُرَ الوَحْدَةِ، نَشُمُّ الغَرَابَةَ البِكْرَ فِي قَعْرِ
الْهَآوِيَةِ، وَنَسْمَعُ مَرَاكِبَنَا تَرْسِلُ خَوَارِهَا^(٥) اليَأْسَ، وَاليَأْسُ هَلَالٌ طَالَعٌ، وَالشَّرُّ
فِي طِفْلَوْتِهِ. وَعِنْدَ مَسَاقِطِ الأنْهَرِ فِي بَحْرِنَا المَيِّتِ، يَلْدُ اللَّيْلُ أَعْيَادًا وَعَرَائِسَ
مِنَ الزَّبَدِ وَالرَّمْلِ، مِنَ الجَرَادِ وَالرَّمْلِ.

(١) يَتَخَثَّرُ: يَتْرَاكُمُ الدَّمُ وَيَفْسَدُ.

(٢) تَدَبَتْ: تَزَحَفُ بِيْطَاءَ.

(٣) المَوْصَدُ: المَقْفَلُ.

(٤) نَحِيبُ: بَكَاءٌ وَعَوِيلٌ.

(٥) الخَوَارُ: صَوْتُ الثَّوْرِ.

ونمضي في مُنحدراتٍ منَ الوحلِ والنَّحيبِ، والأرضُ تنزفُ دماً في
خواصِرنا، الحياةُ هزيلةٌ في هذه الدَّقائِقِ من العمر، النَّهارُ لا حوَّاجِبَ له،
وليسَ للشمسِ أَهدابٌ طويلةٌ، وتحتَ أَقنعةِ الجليدِ والرَّمْلِ نكبَرُ ويكبَرُ
النَّاسُ.

أدونيس

(بتصرّف)

رثاء تلميذة

قال الياس عشيّ في رثاء تلميذة له سقطت بشظية في الحرب اللبنانية الأخيرة.
 ١ - عندما يصير الوطن نَفَقًا، تُلغى المسافةُ بينَ وَجْهِ وَوَجْهِ، وتَنطفئُ العيون، وتُصبحُ غربةُ الإنسانِ مشابهةً لِغُرْبَةِ الوَطَنِ، وَلِغُرْبَةِ الموتِ.

٢ - عندما قالوا: لارا نَجَحَتْ لم أنفعلْ، فنجاحُ لارا كان واضحاً كوضوحِ ابْتِسَامَتِهَا المزروعةِ في أرجاءِ الصَّفِّ، وعندما قالوا: لارا ماتت، لم أبك، فَمَوْتُ الياسمينِ قَدَرٌ لِيَبْقَى السماءُ مُعْطَرَةً، ومَوْتُ الياسمينِ لا يتوقّفُ عِنْدَ سورِ الحديقةِ، بل هو مَوْتُ نَبِيٍّ لَهُ نَكْهَةُ الطفولةِ التي لَمْ يَرَحْمَهَا أَحَدٌ في هذه السَّنَوَاتِ العِجَافِ. كيف تموتين، يا لارا، بشظية وأحلامك كانت كالورد؟

٣ - تأكّدي يا لارا أن موتك أُلغى عَقْلِي، وَحَوَّلَنِي في لحظةٍ إلى مشاعرٍ متناقضةٍ مفكّكةٍ لا ضابط لها سوى ذكرى عامين كنتَ فيهما تلميذتي، وسأبقى مع بقيّة الأساتذة والزملاء نذكر عينيك الوامضتين وشعرك المجدول كأنه الشلال، وغمّازتين على الوجه تُسامرين بهما الحقول.

٤ - وَبَعْدَ شَهْرٍ نَعُودُ إلى المدرّسةِ دونك، وسنُفقدُك يا لارا، وسنُحاولُ ألاّ نَبْكِي، فَأَنْتِ تَكْرَهينَ البكاءَ، لكننا نَعِدُكَ بأنك ستَبْقين في قلوبنا جميعاً: جديلةً، وغمّازتين، وشعرًا.
 الياس عشيّ

متفرقات رثائية

إَجْرَحِ الْقَلْبَ وَاسْقِ شِعْرَكَ مِنْهُ
فَدَمُ الْقَلْبِ خَمْرَةُ الْأَقْلَامِ

الياس أبو شبكة

* * *

نصيبك في حياتك من حبيب
نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابني سهام
تكسرت النصال على النصال

المتنبي

* * *

قال ابن الجهم يرثي أولاده:

فَارَقْتُكُمْ، وَحَيْثُ بَعْدُكُمْ
مَا هَكَذَا كَانَ الَّذِي يَجِبُ

إِنِّي لَأُلْقِي النَّاسَ مُعْتَذِرًا
مِنْ أَنْ أَعِيشَ، وَأَنْتُمْ غُيُبُ

* * *

قال أمين نخلة في رثاء شبلي المّلاط:
إِنْ تَرَى الرَّجْفَ جِينًا فِي أَنَامِلِهِ
فَذَاكَ مِنْ طَوْلِ مَسِّ الْوَحْيِ لِلْقَلَمِ

* * *

وَأَعُودُ بِالذُّكْرِى عَلَى عَهْدِ لَنَا
رَفَّتْ عَلَيْهِ نَضَارَةٌ وَسَنَاءُ
أَيَّامِ نَضْحِكَ وَالْمُنَى مَعْسُولَةٌ
وَلِكُلِّ شَيْءٍ رَوْنَقٌ وَرُوءَاءُ
نَحْتَالُ فِي رَوْضِ الشَّبَابِ وَبُرْدِهِ
وَنَخَالُ أَنَا وَحَدَنَّا الْأَحْيَاءُ
محمّد كوسا

* * *

روى الأصمعيّ أنّه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدّها بقبر زوجها وهي
تبكي، وتقول:

خَدِّي تَقِيكَ خُشُونَةَ اللَّحْدِ
وَقَلِيلَةَ لَكَ، سَيِّدِي، خَدِّي
يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ الَّذِي بِوَفَاتِهِ
عَمِيتْ عَلَيَّ مَسَالِكَ الرُّشْدِ
اسْمَعْ أَبْتُكَ عِلَّتِي فَلَعَلَّنِي
أُطْفِي بِذَلِكَ حُرْقَةَ الْوَجْدِ
* * *

تزوَّج الأمين بفتاة، وتُوِّفِي عنها قبل أن يني بها، فندبته ندباً حاراً،
ومن قولها فيه :

أَبْكِيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأُنْسِ
بَلْ لِلْمَعَالِي وَالرُّمَحِ وَالْفَرَسِ
أَبْكِي عَلَى سَيِّدٍ فُجِعْتُ بِهِ
أَرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْعُرْسِ

* * *

من أروع ما رُئي به الزوجات وأشجاء قول محمد بن عبد الملك
الزَّيَّات في زوجته :

أَلَا مَنْ رَأَى الطُّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ^(١)
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَهَا غَيْرَ أُمٍّ
يَبْتَائِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَتَّجِيَانِ
وَيَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتُهُ
بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
فَلَا تَلْحَيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا
أُداوِي بِهَذَا الدَّمْعِ مَا تَرِيَانِ
وَإِنْ مَكَاناً فِي الشَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ
لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

(١) يتدبران: يسيلان بالدموع.

أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى
فَهَلْ أَنْتُمَا إِنْ عُجْتُ مُتَّظِرَانِ
* * *

ماتت شريكة حياة محمود سامي البارودي ، وهو منفي في سرنديب
(جزيرة سيرلنكا) ، فَحُرِمَ أولاده أباهم وأُمُّهم معاً. واجتمع عليه بذلك
أسى النفي ، والفقد ، وحرمان الأبناء ، مِمَّنْ كانت أنسهم في غيبته وأمنهم
وسعادتهم ، ولم يلبث أن بثَّ حسرته المتوقدة وحرقة المتأججة في مرثية
طويلة يقول فيها :

يَا دَهْرُ فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ
كَانَتْ خُلَاصَةً عُذَّتِي وَعَتَادِي
إِنْ كُنْتُ لَمْ تَرْحَمْ ضَنَائِي لِيُعْجِلْهَا
أَفْلا رَجِمْتَ مِنَ الْأَسَى أَوْلَادِي
أَفَرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنْمُنْ تَوَجُّعاً
فَرُحَى الْعُيُونِ رَوَاجِفَ الْأَكْبَادِ
يَبْكِينَ مِنْ وَلِيهِ فِرَاقَ خَفِيَّةٍ
كَانَتْ لَهُنَّ كَثِيرَةَ الْإِسْعَادِ
فَخَذُوذُهُنَّ مِنَ الدَّمْعِ نَدِيَّةً
وَقُلُوبُهُنَّ مِنَ الْهُمُومِ صَوَادِي
* * *

كان مالك بن الرِّيب في غزوة في خراسان ، فحضرته المنية ، فراح
على نفسه قائلاً :

فَيَا صَاحِبِي رَخْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَاحْفِرَا
بِرَابِيَةِ ، إِنِّي مُقِيمٌ ، لِيَالِيَا

وَحُطًّا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجَعِي
 وَرُدًّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا
 خُذَانِي، فَجُرَّانِي بِرُيِّ إِلَيْكُمَا
 وَقَدْ كُنْتُ، قَبْلَ الْيَوْمِ، صَعْبًا قِيَادِيَا
 تَفَقَّذْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
 سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمَحِ الرُّدَيْنِيَّ بَاكِيَا
 وَبِالرَّمْلِ مِنْهَا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْتَنِي
 بَكَيْنَ وَقَدْئِنَ الطَّبِيبَ الْمُدَاوِيَا
 عَجُوزِي وَأُخْتَايَ اللَّتَانِ أُصِيبَتَا
 بِمَوْتِي وَبُنْتُ لِي تَهْجُ الْبَوَاكِيَا
 وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ مِنِّي وَأَهْلِهِ
 ذَمِيمًا وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَّعْتُ قَالِبًا^(١)
 يَقُولُونَ: لَا تَبْعُدْ وَهُمْ يَدْفُنُونِي
 وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا

* * *

أَوْصَى أَبُو الْعَتَاهِيَةِ بِأَنْ يُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الْأَرْبَعَةُ:

أُذِّنْ حَيٌّ تَسْمَعِي
 اسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي
 أَنَا رَهْنٌ بِمَضْجَعِي
 فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْرَعِي

(١) القالي: المُبْغِضُ الْكَارِه.

عِشْتُ تَسْعِينَ حِجَّةً
ثُمَّ وافيتُ مِضْجَعي
لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى التُّقَى
فَخُذِي مِنْهُ أَوْ دَعِي

* * *

الفهرس

المقدمة ٥

من الرّثاء في العصر الجاهلي

المهلهل ٩

رثاء كليب ١٠

الخنساء ١٣

رثاء صخر ١٤

قذّي بعينك ١٥

من الرّثاء في العصر الإسلامي والأمويّ

متّم بن نويرة ٢١

حسان بن ثابت الأنصاري ٢٣

رثاء الرّسول ٢٣

جرير ٢٧

٢٨	رثاء امرأته
٣٠	رثاء ابنه
٣٢	في رثاء معن بن زائدة

من الرثاء في العصر العباسي

٣٧	أبو تمام
٤٣	ابن الرومي
٤٤	رثاء ابنه الثالث
٤٤	رثاء ولده الأوسط
٤٩	الشريف الرضي
٥٣	أبو العلاء المعري
٥٩	المتنبي
٥٩	رثاء أم سيف الدولة
٧١	رثاء محمد بن بقيّة
٧٥	علي بن محمد التهامي

من الرثاء في العصر الأندلسي

٨١	أبو البقاء الرندي
٨١	رثاء الأندلس

من الرثاء في العصر الحديث

٨٧	الياس أبو شبكة
٩١	مصطفى المنفلوطي
٩٥	صلاح لبكي
٩٩	الأخطل الصغير
١٠٩	حافظ إبراهيم

١٠٩	رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
١١٦	رثاء مصطفى كامل باشا
١٢١	شفيق المعلوف
١٢٥	الدكتورة مي سعادة
١٢٥	الذكريات التائهة
١٢٧	من قال غاب
١٢٨	أيلول ليس بقادم
١٣١	نزار قباني
١٣٩	جورج غانم
١٣٩	والدي
١٤١	نصب مدفني اغريقي في رودس
١٤٢	سلفادرو دالي - إلحاح الذاكرة - ١٩٣١

متفرقات رثائية

١٤٥	مرثية الأيام الحاضرة
١٤٧	رثاء تلميذة
١٤٩	متفرقات رثائية

سلسلة «اروع ما قيل»

أروع ما قيل في الوصف	أروع ما قيل في الاجتماعات
أروع ما قيل في الرطبيات	أروع ما قيل في الإغرائيات
أروع ما قيل من الأدعية	أروع ما قيل في الحب والغزل
أروع ما قيل من أغان وأشعار للأطفال	أروع ما قيل في الحكمة
أروع ما قيل من الأمثال	أروع ما قيل في الخمرة ومجالسها
أروع ما قيل من الحكايات ٢/١	أروع ما قيل في الرثاء
أروع ما قيل من الخطب	أروع ما قيل في الزهد والتصوف
أروع ما قيل من الرباعيات	أروع ما قيل في الزواج
أروع ما "كتب" من الرسائل	أروع ما قيل في الفخر والحماسة
أروع ما قيل من الطرائف	أروع ما قيل في المديح
أروع ما قيل من قصص العشاق ٢/١	أروع ما قيل في المرأة
أروع ما قيل من الموشحات	أروع ما قيل في الموت
أروع ما قيل من النوادر	أروع ما قيل في الهجاء
أروع ما قيل من الوصايا	أروع ما قيل في الوجدانيات